
قاسم أمين
تحرير المرأة
مكتبة الآداب

تحرير المرأة

تأليف

قاسم أمين

المستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

ملتزم الطبع

محمد علي كامل

صاحب

مكتبة الترقي

ومطبعتها

{ بشارع عبد العزيز بالقاهرة }

سنة ١٣١٦ - ١٨٩٩

مكتبة الآداب

١٢ ميدان الأوبرا . القاهرة ت ٩٠٨١٩٠٠٢٩٠



الناشر

مكتبة الآداب

الطبعة الثالثة: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

أمين ، قاسم بن محمد أمين المصري، ١٨٦٥ - ١٩٠٨

تحرير المرأة / قاسم أمين

. - ط٣. القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠٠٩.

ص ؛ سم.

تدمك ٥ ٠٥٩ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - تحرير المرأة

أ - العنوان

٣٢٣,٣

عنوان الكتاب: تحرير المرأة

اسم المؤلف: قاسم أمين

رقم الإيداع: ٤٥٣٤ لسنة ٢٠٠٩م

الترقيم الدولي: I.S.B.N.978 - 977 - 468 - 059 - 5

مكتبة الآداب

(علي حسن)

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)٠٠

e-mail: adabook@hotmail. com

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسئلة من المسائل التي اجملتها في هذه الاسطر القليلة يصح ان تكون موضوعاً لكتاب على حدة · وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة · وغاية ما اريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني · وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونمى نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها

ويرى المطلع على ما اكتبه اني لست ممن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب لان تحويل النفوس الى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر اثر العاملين فيه ببطء شديد في اثناء حركته

الخفية · وكل تغيير يحدث في امة من الامم وتبدو ثمرته في احوالها فهو ليس بالامر البسيط وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل بالتدريج في نفس كل واحد شيئاً فشيئاً ثم تسري من الافراد الى مجموع الامة فيظهر التغيير في حال ذلك المجموع نشأة اخرى للامة

وما نحن فيه اليوم ليس في الطاقة البشرية تغييره في الحال · وليس من العار علينا انا وجدنا في مثل هذه الحالة لان كل عصر لا يسأل الا عن عمله · وانما العار ان نظن في انفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعي ان عوائدنا هي احسن العوائد في كل زمان ومكان · وان نعاند الحق وهو واحد لا يحتاج في تقريره الى تصديق منا به وكل ما نقوله او نفعله لانكاره لا يؤثر فيه بشيء · وانما يؤثر فينا اثر الباطل في اهله ويقوم حجاباً بيننا وبين اصلاح نفسنا اذ لا يمكن لامة ان تقوم باصلاح ما الا اذا شعرت شعوراً حقيقياً بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له

لا اظن انه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في ان امته في احتياج شديد الى اصلاح شأنها · فهؤلاء المتعلمون الذين اخاطبهم اليوم اقول ان عليهم تبعة ما نألم له في عصرنا هذا · ولا يليق بمعارفهم ولا بعزائمهم ان يسجلوا على انفسهم وعلى امتهم العجز واليأس والقنوط · فان ذلك صورة من صور الكسل او مظهر من مظاهر الجبن او حال من احوال من لا ثقة له بنفسه ولا باهله ولا بملته ولا بشرعه ولا بامه واراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث تصرف فيهم كما تصرف

في الجماد والنبات وتقذف بهم الى حيث يحبون اولا يحبون

قد طرقت باباً من ابواب الاصلاح في امتنا والتمست وجهاً من وجوهه في قسم من افراد الامة له الاثر العظيم في مجموعها واتيت في ذلك بما اظنه صواباً · فان اخطأت فلي من حسن النية ما ارجو معه غفران سيئة خطائي · وان اصبت كما اظن وجب على اولئك المتعلمين ان يعملوا على نشر ما اودعته في هذه الوريقات وتأييده بالقبول والعمل ·



﴿حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية﴾

(تابعة لحالة الآداب في الامة)

اني ادعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين من انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها · هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتحنها واحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلني بورودها وتنبهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن احكم الاشياء التي يدور عليها تقدم النوع الانساني ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغريبة التي تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية او ادبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعي في عقله واعتقد انها تساعد على تقدم ابناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها · تلك قوة يدرك سلطانها من وجد في نفسه شيئاً منها · يشعر

انه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ولم يستنجد بقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيأت له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل في قهرها وظهرت في غير ما يحب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لا يكتم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقعة قد تأتي على هلاك ما حواه

والبراهين على ذلك كثيرة في الماضي فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التي قامت في سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق واخرى للباطل وكانت الأمم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك او يزيد في البلاد الغربية التي يصح ان يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلي بين افراد الامة في جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجي بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصاً في هذا القرن الذي الغت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والابعاد وهدمت الحدود الفاصلة والاسوار المانعة حتى ان الاشخاص الذين ساحوا في جميع انحاء الارض يعدون بالألوف . واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتاباً ترجم في اثناء طبعه وظهر في خمس او ست لغات في آن واحد !

ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده اهل الوقت

حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأُولى او قضت به المصالح في هذه الازمنة ٠

وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوة في الجدل بان يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام ٠ وما يرمي بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم او الخروج من عناء العمل في البحث او الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم واقالهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة ٠ فاقول نعم اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام ٠ بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها ٠

لمَ يعتقد المسلم ان عوائده لا تتغير ولا تتبدل وانه يلزمه ان يحافظ عليها الى الابد ؟ ولمَ يجرِ على هذا الاعتقاد في عمله مع انه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله في خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن اصطلاح امة على سلوك طريق خاصة في معيشتهم ومعاملاتهم حسبما يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذي يمكنه ان يتصور ان العوائد لا تتغير بعد ان يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان

يختلف باختلاف الاماكن والازمان ؟ المسلمون منتشرون في اطراف الارض . فهل هم انفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش ؟ من ذا الذي يمكنه ان يدعي ان ما يستحسنه عقل السوداني يستحسنه عقل التركي او الصيني او الهندي . او ان عادة من عادات البدوي توافق اهل الحضر . او يزعم ان عوائد امة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير ؟

والحقيقة ان لكل امة في كل مدة من الزمن عوائد وآدابا خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائمًا تغيرًا غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الادبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك . وان كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتماً اثر يناسبها في العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم ان يكون بين عوائد السوداني والتركي مثلاً من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما في العقل . وهو الامر المشهور الذي لا ريبة فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والاوروباوي

ولا يمكن ان يتصور احد ان العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون في امة جاهلة او متوحشة مثل ما تكون في امة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل امة ومنزلتها من المعارف والمدنية نرى ان سلطان العادة انفذ حكماً فيها من كل سلطان وهي اشد شؤونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للامة عن طاعتها الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت او انحطت عن درجتها في العقل ولهذا نرى انها تتغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على الشرائع · ويؤيد ذلك مانشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين واللوائح التي توضع لاصلاح حال الامة تنقلب في الحال الى آلة جديدة للفساد · وليس هذا بغريب فقد تتغلب العادات على الدين نفسه فتفسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه

وهذا هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء المرأة وتقدم الامة ومدنيتها · فقد علمنا ان في ابتداء تكون الجمعيات الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء وكانت واقعة عند الرومان واليونان مثلاً تحت سلطة ابيها ثم زوجها ثم من بعده اكبر اولادها · وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من الحقوق المخولة لمالكها · وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام ان يقتل الآباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد محدود · ولا تزال هذه السلطة الآن سائدة عند قبائل افريقا

وامريكا المتوحشة · وبعض الامم الاسيوية يعتقد ان المرأة ليس لها روح خالدة وانها لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها · ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له احسن متاع يمتلكه

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظامات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه ·وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء اخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنتسب اليها ودرجة المدنية فيها · فالمرأة الامريكية في اول صف ثم تتلوها الانجليزية وتأتي بعدها الالمانية وتليها الفرنساوية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ· كلها نفوس شعرت انها حقيقة بالاستقلال فهي تبحث عن الوسائل لنيله · وانها جديرة بالحرية فهي تسعى للوصول اليها · وانها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق للانسان

والغربي الذي يحب ان ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد ان المرأة الغربية ترقت لان دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها · ولكن هذا الاعتقاد باطل · فان الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل

حرية المرأة ولم يبين حقوقها باحكام خاصة او عامة . ولم يرسم للناس في هـذا الموضوع مبادئ يهتدون بها . وقد اقام هذا الدين في كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثراً محسوساً في الاخلاق من هـذه الجهـة بل تشكل نفسه بالشكل الذي افادته اياه اخلاق الامم وعاداتهـا . ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في مقدمة نساء الارض

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فاعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الاحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير ان يتوقف تصرفها على اذن ابيها او زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الاولاد خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجل في الحقوق

والميل الى تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسئلة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لهـا في

ذلك طرقاً جديرة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافاً لما يتوهمه الغربيون ويظنه بعض المسلمين

ولم أرَ الاَّ مسئلة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهي تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التي لا يقوم للزواج حياة بدونها وسيأتي الكلام عليها ايضاً فيما يلي . وبالجملة فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمي اليه من مقاصدها ما يمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الامر بالعكس فانها اكسبتها مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية

لكن وآ اسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل اخلاق سيئة ورثناها عن الامم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من عوائد واوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى المقام الذي احلتها الشريعة فيه . وكان اكبر عامل في استمرار هذه الاخلاق توالي الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والاماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام . بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً فكان لسلطانهم واعوانه سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤا بلا قيد ولا استشارة ولا مراقبة وادارو مصالح الرعية بدون ان يكون لها صوت فيها

نعم كان الحاكم صغيراً او كبيراً ملزماً باتباع العدل واجتناب الظلم لكن من المجرب ان السلطة الغير المحدودة تغرى بسوء الاستعمال اذا لم تجد حداً تقف امامه ورأياً يناقشها وهيئة تراقبها · ولهذا مضت القرون على الامم الاسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق واساء حكامها في التصرف وبالغوا في اتباع اهوائهم والعب بشؤون الرعاية · بل لعبوا بالدين نفسه في اغلب الأزمنة · ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة الى غالبهم

اذا غلب الاستبداد على أمة لم يقف اثره في الانفس عند ما هو في نفس الحاكم الأعلى · ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من دونهم وينفث روحه في كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة من التحكم فيه · يسري ذلك في النفوس رضى الحاكم الأعلى او لم يرضَ

كان من اثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل في قوته اخذ يحتقر المرأة في ضعفها · وقد يكون من اسباب ذلك ان اول أثر يظهر في الامة المحكومة بالاستبداد هو فساد الاخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يحب العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه · لكن المشاهد يدل على ان الأمة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع ارضها لنمو الفضيلة ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة · وكل المصريين الذين عاشوا

تحت حكم المستبدين السابقين — وما العهد منهم ببعيد — يعلمون ان شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الاهالي . والعمدة الذي كان يضرب مائة كرباج كان عند عودته الى بلدته ينتقم من مائة فلاح

فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الاَّ القوة ولا يردع الاَّ بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بارجله على شخصيتها . عاشت المرأة في انحطاط شديد اياً كان عنوانها في العائلة زوجةً او أماً او بنتاً ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأي خاضعة للرجل لانه رجل ولانها امرأة . فنى شخصها في شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الاَّ ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتحجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذة . يلهو بها متى اراد . ويقذف بها في الطرق متى شاء له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الامر والنهي ولها الطاعة والصبر . له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه !

من احتقار الرجل للمرأة ان يملأ بيته بجوار بيض او سود او بزوجات متعددة يهوى الى ايهن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقاً بباعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما اوجبه عليه من العدل فيما يأتي

من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب

من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النسآء من ام واخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه

من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل اغا او مقدم او خادم يراقبها ويصحبها اينما تتوجه

من احتقار المرأة ان يسجنها في منزل ويفتخر بانها لا تخرج منه الا محمولة على النعش الى القبر

من احتقار المرأة ان يعلن الرجال ان النسآء لسن محلاً للثقة والامانة

من احتقار المرأة ان يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في اي شيء يتعلق بها : فليس لها رأي في الاعمال ولا فكر في المشارب ولا ذوق في الفنون ولا قدم في المنافع العامة ولا مقام في الاعتقادات الدينية وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي .

ولست مبالغاً ان قلت ان ذلك كان حال المرأة في مصر الى هذه السنين الاخيرة التي خفت فيها نوعاً سلطة الرجل على المرأة تبعاً لتقدم الفكر في الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم . ورأينا النساء يخرجن لقضآء حاجاتهن ويترددن على المتنزهات العمومية لاستنشاق الهوآء وترويح النفوس بتسريح النظر في الكائنات التي عرضها الصانع جل شأنه على نظر كل مخلوق رجلاً كان او امرأة . وكثير منهن يذهبن مع

رجالهن الى السياحة في بعض البلاد الاخرى · وكثير من الرجال قد اعطوا لنسائهن مقاماً في الحياة العائلية

وهذا انما طرأ على بعض الرجال من نشأة الثقة في نفوس اولئك الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى اماتهن : وهو احترام جديد للمرأة

نعم لا ننكر ان هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد · لكن سبب الانتقاد في الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التي احتفت به واهمها رسوخ عادة الحجاب في انفس الجمهور الاعظم ونقص تربية النساء · فلو كملت تربية النساء على مقتضى الدين وقواعد الادب ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في اغلب المذاهب الاسلامية سقطت كل تلك الانتقادات وامكن للامة ان تنتفع بجميع افرادها نساء ورجالاً

تربية المرأة

المرأة وما ادراك ما المرأة · انسان مثل الرجل · لا تختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان · اللهم الاَّ بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف

فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف في الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون ان تربية المرأة وتعليمها غير واجبين · بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعاً او هو محرم بمقتضى الشريعة !

وأتذكر اني اشرت يوماً على أب وقد رأيت معه بنتاً بلغت من

العمر تسع سنوات اعجبني جمالها وذكاؤها بان يعلمها فاجابني : « وهل تريد ان تعطيها وظيفة في الحكومة ؟ » فاعترضت عليه قائلاً : « وهل في مذهبك لا يتعلم الا الموظفون ؟ » فاجابني : — « اني اعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ولا افعل غير ذلك » . قال هذا على وجه يشعر انه لا يحب المناقشة في رأيه . ويعني هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشي نكيراً انه مخطيء في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها

في رأيي ان المرأة لا يمكنها ان تدير منزلها الاّ بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب ان تعلم كل ما ينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائي على الاقل حتى يكون لها المام بمباديء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت

فاذا تعلمت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على اصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد واجالت النظر في تاريخ الامم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة

وطرح الخرافات والاباطيل التي تفتك الآن بعقول النساء

وعلى من يتولى تربية المرأة ان يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها . والفضائل التي لها اثر في معاملة الاهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التي يظهر اثرها في نظام الامة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في نفسها : ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولي والقدوة الصالحة

هذه هي التربية التي اتمنى ان تحمل عليها المرأة المصرية ذكرتها بالاجمال وهي مفصلة في المؤلفات المخصصة لها في كل اللغات . ولا اظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها ان تقوم بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية وفي العائلة :

١

اما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء في كل بلد يقدرن بنصف سكانه على الاقل . فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع باعمال نصف عدد الامة . وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من ان تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الا جهلها واهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم في الاعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت

نفساً حية فعالة تنتج بقدر ماتستهلك لا كما هي اليوم عالة لاتعيش الا بعمل غيرها . ولكان ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه في الصندوق ويكتفي بان يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنين قليلة

من عوامل الضعف في كل مجتمع انساني ان يكون العدد العظيم من افراده كلاً عليه لا عمل له فيما يحتاج اليه وان عمل كان كالآلة الصماء او الدابة العجماء لا يدري ما يصدر منه

المرأة محتاجة الي التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا أنا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها ان يكون لها ولي يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولي أمر مضمون في جميع الاحوال . مع أن الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن . فالبنت التي فقدت اقرباءها ولم تتزوج والمرأة المطلقة والارملة التي توفى زوجها والوالدة التي ليس لها أولاد ذكور اولها اولاد قصر — كل هذه المذكورات يحتجن الى التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات اولادهن ان كان لهن اولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو الى التطفل على بعض العائلات الكريمة

ويمكن ان يقال انا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب — وما اكبر هذه المذلة على المرأة — لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة · وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة ·

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتي وقعن في العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه · ويمكننا ان نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد ·

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم في مالية العائلات فان الرجل المصري الذي يشتغل لكسب عيشه وعيش اولاده يرى شطراً من المال الذي يجمعه ينفق على اشخاص من اقاربه أو معارفه او ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه مايستطيع كيلا يموتوا جوعاً · وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ماحرموا من التربية

ولوفرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيراً أو تخفيف شيء من اثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنياً ؟ فان كانت المرأة غنية بنفسها — وهو نادر — بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها

بالتعليم في تدبير ثروتها وادارة شؤونها ؟

نري النساء كل يوم في اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب أو أجنبي · ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون انفسهم أكثرمما يشتغلون بشؤون موكلاتهم فلا يمضي زمن قليل الا وقد اغتنى الوكيل وافتقر الاصيل

نري النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوي عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما اودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش او اختلاس يرتكبه زوجها أو احدا قاربها أو وكيلها · فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم في حد ذاته هو في كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية · وهو الآن من الحاجات الأولى في كل مجتمع دخلت فيه المدنية · وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التي يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية

ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقي الكرامة والشرف · ولكل نفس حق طبيعي في تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حد ترمي اليه باستعدادها

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال · والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية

كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجل · فاي نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة في الدنيا والآخرة ؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ونحن نرى ان الصبيان من الذكور والأناث يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث؟ وربما كان الولع بذلك في الانثى أشد منه في الذكر

· أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على ان المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل · أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثاً · وانه أتاها من الحواس والآلات الادراك ما أتاها لاجل ان تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل · وان وظيفتهنَّ تنتهي عند عتبة باب البيت · وهو قول من يعيش في عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه ·

ولو تبصر المسلمون لعلموا أن اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذي

يجر ضياع حقوقها · فان الرجل لما كان مسؤولا عن كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ في نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه على أن يتسلى به

مضت الأجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ ان يتخذها الا امرأ صالحاً لخدمته مسيراً بارادته · وأغلق في وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل امرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه الا ان تعيش ببضعها اما زوجة أو مفحشة

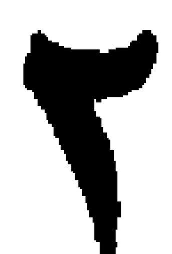
ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها ان تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء وجهت جميع قواها الى التفنن في طرق استمالته اليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه

مضت تلك الأزمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف في ارادتها · فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر · وهو الرائد لها في الاختيار بين النفع والضرر · فهي تنفر أو تميل · فان أحبت أخلصت لا عن عقل · وصدرت منها الاعمال الجميلة في ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأي · وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر · فلو كانت ادركتها

العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرفت في اعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الادب

أضلت المرأة عقلها في ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ما تشتهي من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة واخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي امرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه · ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع · فاصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر في المظاهر المتضادة والألوان المختلفة في كل حال بحسبها · كل ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هي حيل الثعالبة

ولكن لا لوم عليها وعذرها انها ليست حرة · وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة في قوة التمييز · بل اللوم كل اللوم على الرجال : اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نسائنا



واما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفي لكل انسان متفكر ان يتأمل في حالة عائلته ليتأكد ان استمرار الحال على ما هي عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله

اني اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة واخذت بمجامع خواطري · ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي

انها ما تركت ذهناً حتى دالفت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة . فقد تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ولا يظهر اختلافهنَّ الا في الملبس والحلى . بل يمكن ان يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها . وان آخر طبقة من نساء الامة وهي التي تسكن الارياف هي اكملهن عقلاً بنسبة حالها

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . مداركهما في مستوٍ واحد لا يزيد احدهما عن الآخر تقريباً . مع اننا نرى ان المرأة في الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لان الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو اكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب يميل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الافراد حداً ينتهي الى اهمال الامور المادية . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات ويتكلم في أخرى ويضحك في غيرها . له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع

المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه او احساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه . فاذا كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان يرى نفسه في عالم وحده وامرأته في عالم آخر . اذ هي تعتبر ان الرجل ما خلق في هذه الدنيا الا ليشتري لها الامتعة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف اوقاته في ملاعبتها كأنه صورة اكبر من الصور التي كان يشتريها لها والدها في صغرها لتلهو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها واعتبرها من الاعدام التي لا اثر لها في شؤونه . وهي متى رأته اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت انه يظلمها وبكت سوء حظها الذي ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ونبتت البغضاء في قلبها . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالاً منها . عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة

ولا يُظن ان هذا يختص بذوي الاخلاق الفاسدة من الرجال والنساء . فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على احدهما بل الذنب على اختلافهما في التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة — إن استمر الاقتران بينهما — ان يميت احدهما حقه في سبيل راحة الآخر او يجرّ

كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر . ولكن مهما كان حال الزوجين — وهما على ما ذكرنا من الوصف — فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أُخذت بمعناها الخاص : ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء في القصص الدينية المسطورة في الكتب السماوية ان الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما اظن رمز لطيف الى ان الرجل والمرأة يكوّنان مجموعاً واحداً لا يتم الاّ باتحادهما . ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل . وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع

وهذا الانجذاب الغريزي الذي اوجده الله في كل المخلوقات الحية — حتى في النباتات التي يشاهد في بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حارَ في تفسيرها علماء الطبيعة — هو اهم عنصر يدخل في تركيب الحب . وهو يكفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الانسان عن الحيوان . اما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً . وانما يرجح قسم من العلماء انه سيال يتولد في المراكز العصبية . فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما . فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما

وتترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل ان ينطق اللسان كأن روحيهما صديقتان افترقتا في عالم قبل هذا العالم واخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأُخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها · وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأماني اكبر من مجرد التلاقي فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ان لا تفترقا· ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الاَّ باتصالها بالأُخرى

لكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى يأخذ في التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً · فمهما كانت شدة الرغبة عند اول التلاقي فهي صائرة الى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الامزجة · وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأَماني ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلي من بهاء الارواح وسناء العقول · فهو يضم الى المنظر البديع الجسداني منظراً آخر قد يكون ابدع في اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي · وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التي لا بقاء لها بلذة العقل والوجدان التي لا تنتهي اطوارها ولا تفنى مظاهرها · يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر · ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة

على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية · ووجدان اللذة بهذه المعاني عنصر آخر يدخل في تركيب الحب ايضاً — ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام

واما ما يروى من ان رجلاً عشق امرأة عشقاً روحانياً محضاً او ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات الادبية فقد يكون لان الأول رجل خيالي والثاني رجل جاهل شهوي · على ان التجارب دلت على ان هذه الشهوات البتراء ليس لها حظ من البقاء · فهي كالنار ذات اللهب تهب وتنطفي بسرعة

واليك بياناً يزيد وضوحاً في فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الافراد فهي دائماً واحدة · فان افراد اللذة المتحدة في النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز الا باختلاف الزمان او المكان مثلاً فما يحصل منها اولاً هو ما يحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهي ان تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر او لذة سمع او لذة ذوق او لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد الرغبة فيها فياتي زمن لا تتنبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها · والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية · هذه اللذة في طبيعتها انه

يمكن تجددها في كل آن . تأمل في مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع لموضوع و ينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل او فكر او حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاء جديداً و يفيد انفسهما لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة احدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة و يزيد في رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة .

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف ان العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من اكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها

فهذا الحب لا يمكن ان يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ولا يجب ان يفهم ان الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها ان تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه المادى والمعنوي لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها

سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسائهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون — اني بحثت كثيراً في عائلات مما يقال

انها في اتفاق تام فما وجدت الى الآن لا زوجاً يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهري الذي يشاهد في كثير من العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لان الزوج تعب وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه واما لانهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الاخير هو حال اغلب الازواج المصريين . ولا ارى ما يقرب من السعادة الا في هذا النوع الاخير وان كانت سعادة سلبية لا قيمة لها

اما في النوعين الاولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء احد الزوجين في سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن ان اسلم به هو انه قد يشاهد في عدد قليل من الازواج شيء يقرب من المودة يظهر في بعض الاحيان ثم يختفي . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهي عدم الحب : عدم الحب من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه في العقل والتربية تأخراً فاحشاً بحيث لا يكاد توجد مسئلة يمكن ان يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . ولا يكاد يوجد امر يتفقان في الحكم عليه برأي واحد . ولانها بعيدة عن العواطف والمعاني والاشغال التي يميل اليها ومغمورة في شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى انها في الامور التي هي من عملها وترى انها خلقت لاجلها لا يرى منها زوجها ما يروق نظره . فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعرهن كل يوم . ولا على الاستحمام اكثر من مرة في الاسبوع . ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين

بما يلي البدن من الملابس مع ان جودتها ونظافتها لها اعظم تأثير في استمالة الرجل · ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها وكيف تكون موافاتها · ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة اسباب الميل والنفور فاذا ارادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك

واما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب · ولو اردنا ان نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد انه يتركب من امرين ميل اليه من حيث هو رجل ابيح لها ان تقضي معه شهواتها · وشعور بان هذا الرجل نافع لها للقيام بحاجات معيشتها · اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الاخرى من بين آلاف من سواهما امتزاجاً تاماً يؤلف منهما موجودا واحداً كأن كلاً منهما صوت والآخر صداه · ذلك الاخلاص التام الذي ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكراً الا في صاحبه · ذلك الاخلاص الذي لا نجد له مثالاً اظهر من حب الوالدة لولدها — فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض · لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الام لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير ابيض او اسود · اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده في الوجود وكل ما

تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في امته — فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه • وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها • وعلى هذا يكون اول من يجهل الرجل زوجته • فكيف يُظن انها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف ان يمد لهم يده ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا • ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها • فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل و يكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلي والحلوى • وابغض الرجال عندها من يقضي اوقاته في الاشتغال في مكتبه • كلما رأته جالساً منحني الظهر مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها • ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع اذا اراد ان يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم • أراه في حيرة اشد من الرجل الذي جمع بين زوجتين • فقد رأينا احياناً كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد • وما سُمع قط ان امرأة مصرية ممن نعني رضيت بمباشرة العلم

ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل • لان العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعاً بالهدو والسكون

خالياً عن الاضطراب والتشويش . ولأن الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم ان المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصاً اذا كان زوجها متعلماً يصرف وقته في الاعمال النافعة

قد يقال ان الحب الذي تكلمت عنه هو من كمال السعادة وليس من الامور الضرورية التي لا يُستغني عنها في الزواج . وانه عند فقده يمكن ان يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ويكفي ان المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له في المنافع والمضار ولذلك فهي تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة — هذا يمكن ان يكون . ولكن كيف الوصول اليه ايضاً مع جهل المرأة ؟

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هي زميلة الرجل في كل اعماله وهي قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لأن المعيشة في الأرياف سازجة بدوية تقريباً وحاجات العائلة قليلة . اما في المدن التي ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة مصلحة من كبار المصالح فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها الا بالتعليم والتربية

والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة

الخدم بحيث لا يُفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي. وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه. فتحلو له الاقامة فيه ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضي اوقاته عند الجيران او في المحلات العمومية. وعليها — وهو اول الواجبات واهمها — تربية الاولاد جسماً وعقلاً وأدباً

وظاهر ان تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعي عقلاً واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقاً سليماً : ولا يتأتي وجود ذلك في المرأة الجاهلة وخصوصاً ما يتعلق منها بتربية الأطفال

بالغنا في نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات لهن النصيب الأوفر في هذه الصناعة. بالغنا في اعتقاد ان الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد. وانه يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء. وهو اعتقاد صحيح اذا أُخذ من جهة ان الله قادر على كل شيء ومن متناوَل قدرته ان يفعل مثل ذلك. فان كان المقصود ان الله يمكنه ان يفعل مثل هذا فلا شك في قدرته سبحانه وتعالى. وليس من ينازع في انه لو شاء فعل ذلك. كما انه لو شاء لجعل الناس امة واحدة ولأنبت الحيوان من الارض. لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاماً وللمخلوقات نواميس تجري عليها احكامها :

" فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها · لاتبديلَ لِخَلقِ اللهِ · ذلكَ الدينُ القيِّمُ " وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن ايد ثبات هذه السنن واستمرارها

من اكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها لنا العلم وهي ان كل فرد من الانواع الحية — وفيها النوع الانساني — ليس الانسخة مطابقة للاصل المتولد منه · ففيه صورة نوعه الكلي وفيه صورة والديه خصوصاً · بمعنى ان هذا الفرد يحتوي اولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بابويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على ان كل الملكات العقلية والادبية في الانسان انما هي مظاهر من وظائف المخ كما ان الصفراء من عمل وظيفة الكبد · وما يسمى عقلا او عاطفة فلا عمل له الا عمل تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ · وانما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الاصل الذي تولدت منه فلا ريب ان يكون لها تبعية عظمى لذلك الاصل · ثم من الظاهر ان الجسم لا يستغنى في نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لا بد في النمو والبقاء من التربية والغذاء · فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما اودعته المدارك والقوى من الاستعداد الاول بل لابد في ظهور اثرها وسيرها فيما اعدت له من الغذاء الذي يوافقها والتربية التي تلائمها · فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان او انثى وليس

هنالك شيء وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان صالحًا كان او فاسدًا و يرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو في بطن أمه. فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه اسلافه من جهة الام ومن جهة الاب . وبالتربية يمتلىء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها في نفسه الما كان او لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ارادة مربيه . فهو الذي يريه و يسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم . وهو الذي يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقا به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة . اولم يشعر من العواطف الا بما يظهر اثره في اقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع اول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون . وان كانت معلوماته كثيرة تحتوي على صور الاشياء وصور ما يحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك . وكان وجدانه رقيقا لطيفا كان الناشىء كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع اول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ وبيده ميزان يزن به اعماله ويقدر به حركاته و يشاهد فيه وهو في صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار .

لا نقول ان الطفل يكون في ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها اوائل وجراثيم من الكمال العقلي والادبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك

الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة · فسلامة العقل لا تتم الا بحسن الوراثة وحسن التربية وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد في الاخلاق الى مرض في المخ او في الاعصاب موروث او مكتسب · وان شوهد ان الولد لا يشابه ابويه في بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى احد اسلافه القريبين

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتأصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسناً فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من ابوين فاضلين ويظهر اثر ذلك ايضاً في اولاده واعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذي صار به هذا الوالد رجلاً صالحاً · اما ان كانت التربية فاسدة وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجني على اولاده تلك الجناية التي جناها عليه والداه

قال الغزالي في التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت ان اوردها هنا وهي: «الصبي امانة عند والديه · وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة سازجة خالية عن كل نقش وصورة · وهو قابل لكل ما ينقش · ومائل الى كل ما يمال اليه به · فان عوِّد الخير وعُلمه وعَلِمه نشأ عليه وسعد في الدنيا

والآخرة وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب. وان عوّد الشر واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل: «يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا»

والتربية تحصر في امر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال. والوسيلة الى ذلك واحدة هي ان يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله. لأن التقليد في غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته. فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة. ويرى من الأعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالاخلاق القبيحة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة في بيته وفي الخارج وكلما تقدم في السن رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره. فاذا وصل الى سن الرجولية رأى نفسه او رآه الناس رجلاً سيئ التربية ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله. ويندر جداً ان يوجد شخص يبتدئ بعد بلوغه سن الرجولية في اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك. اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النساء. فهو دائماً محاط بامه واخواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن و يري اباه في اوقات قليلة. فاذا كان هذا الوسط الذي

ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والام الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لا تعرفها . وغاية ما تستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ان لم تبذر يدها حبوبها في نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة

أليس من جهل الام بقوانين الصحة ان تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه متشرداً فى الطرق والازقة يتمرغ فى الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها ان تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذي هو رأس ماله مضطجعاً او نائماً او لاهياً مع ان سن الطفولية لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ أليس من اثر جهلها اننا جميعاً مصابون بشلل في اعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شيء مهما بلغ في الحسن والقبح . فاذا رأينا عملاً جميلاً مدحناه من طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلاً قبيحاً استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون ان نشعر بانبعاث باطني يقهرنا على الاندفاع الى الاول ولا على الابتعاد عن الثاني ؟ أليس من جهلها ان تسلك فى تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت . وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفى زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالى به الجاهلون باصول الدين وفضائل الاعمال وله من الاثر السيء فى انفس الناشئين بل وفى ارواح الرجال مايجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لايفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السير ان يقال فلان تربية امرأة — على أننا نرى ان تربية المرأة فى البلاد الغربية تفوق تربية الرجل . وان احسن الناس تربيةً هم من ساعدهم الدهر فى ان تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها اقوى استعداداً للنجاح فى التربية . ذلك انها اصبر من الرجل فيما تحب . وانها الطف منه فى المعاملة وارق منه فى العواطف والاحساسات . ويفتخر الغربيون بتأثير النساء فى احوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى احد كتب رونان الفيلسوف الشهير ماحصله : « أن اجمل ماوضعه فى مؤلفاته كان الهاماً من اخته » وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد في بعض ما كتبه : « ان كنت استحق فخراً فلامرأتى نصفه » . وامثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على احوال الاوروباويين . وكلها تدل على ان تربية المرأة امر لايستغنى عنه . وان القسم الاعظم منها منوط بالمرأة

وقد نجد فى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم مايشير الى ذلك . بل كان يجب ان يعد اصلا من الاصول التى نركن اليها في بناء امورنا الملية حيث قال في شأن عائشة رضى الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فعلمت .

اود ان كل مصري يرى ان مسئلة التربية عندنا هي ام سائر المسائل . وان كل مسئلة غيرها مهما كانت اهميتها داخلة فيها

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة في الدين ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم وقل مايشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد آن الوقت على ماأظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية . تربيةً تنشيء رجالاً أولي علم وأصالة رأي يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل . تربيةً تنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الاجنبي في كل يوم وبكل لسان وكلها ترجع مهما اختلفت في الاسم الي سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر في مصر على ان التربية هي الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأي الصائب في الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح ان يقال انه اصبح رأياً عاماً . وتولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها .

ولكن ارى همم الناس موجهةً الى التعليم ولا ارى احداً يلتفت الى تربية النفوس . وارى ان الحرص على التعليم منحصر في تعليم الذكور . مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم . وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور .

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم فذلك غير

ضروري · وانما اطلب الآن ولا اتردد في الطلب ان توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الاقل· وان يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل مايعتني بتعليم البنين ·

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فاراه غير كاف · لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة اجنبية وشيأ من الخياطة والتطريز والموسيقي ولا يتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت اليها· وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بانفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت اترابها وارتفع شأنها وسما عقلها· ولا تتنازل بعد ذلك لان تشتغل بعمل من الاعمال المنزلية· فتقضي حياتها في تلاوة اقاصيص وحكايات قل ماتفيد الا في اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة الى دخان السجارة التي تقبض عليها

اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هوالقراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها · ومابقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منهاواحدة بعد واحدة حتي لا يبقي شيء · اين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوي بها على مطاردة الوهم ! —لاشيء ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمي عقلا عملياً· اريد بذلك مايقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه في اوهام وهواجس لا ترجع الى حق ثابت · فان

كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال · كلما تجرد الانسان عن الاوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة

الحقيقة هي ضالة الانسان في العالم ويجب عليه ان يسعي وراءها بلا قصور ولا تعب · الحقيقة هي الكنز الذي اودع الله فيه كل آمال الانسان لا يجدها الامن رغب فيها زمانا عن سواها · الحقيقة هي مشرق السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس · والنساء مثل الرجال في الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل سليم يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة

انظر الى الطفل تجده يشتهي وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويسكن ويغضب وهو في كل ذلك انما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد الي خيال · واذا أراد شيئاً فنع عنه لم يستعمل للوصول الي غرضه الاشيئاً من الغش والمكر والكذب · لِمَ ذلك ؟ لان عقله ضعيف ومعارفه قليلة · ولم تصل قواه العقلية الى درجة تمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتي تحمله على الصبر احيانًا وطلب المرغوب من ابوابه ووسائله الصحيحة احيانًا اخري : والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرنا ·

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن اعوان ابليس · فلا تسمع الا ذماً لخصالهن وتنقيصاً لعقلهن وتحذيراً من مكرهن · وانا

لا ابرئ النساء الآن من هذه الصفات . ولكن اري ان التبعة ليست عليهن بل على الرجال

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب اخلاقها وتثقيف عقلها ؟ أيجوز ان نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الانعام ؟ أيصح ان يعيش النصف من امتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن كما في الكتاب صم بكم عمي فهم لا يعقلون ؟ أليس بينهن امهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا . وهن زينة حياتنا الدنيا والجزء الذى لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن ؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمنا انفسنا من اكبر لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوي القربي من النساء .

كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط انفسهما بعضها ببعض حتي يذهل كل عن ايهما يتكلم وايهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وامه او اخته او زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحنّ اليهن ونعذرهن . ولكن

لا تكمل محبتنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق · وهو معدوم

والانسان محتاج الي ان يكون محباً وان يكون محبوباً · ومن فضل الله عليه ان وضع بجانبه امهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن وهذه اكبر نعمة منَّ الله علينا بها · لان هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لافضت في بعض الاوقات باقوي رجل منا الي اليأس · فعدم تقديرها قدرها وانصراف العناية عن تميتها وتكميلها كفرانٌ بنعم الله وتقصيرٌ في شكره

بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لايمكننا السكوت عنه لانه في الحقيقة هو المانع الوحيد الذي اتفقت اغلب العقول على وضعه حاجزا يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من ان التعليم يفسد اخلاقها ·

رسخ في اذهان الرجال ان تعليم المرأة وعفتها لايجتمعان · وقال الاقدمون في ذلك اقوالاً طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة · فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة · فحذونا مثالهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحاً جديداً تتقوي به طبيعتها الخبيثة علي ارتكاب المفاسد ·

اما أن المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما

لا يختلف فيه اثنان · وقد بينا ان هذه الحالة هي اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة · وانه متى زال السبب فلا شك ان المسبب يتبعه · واما كون التعليم يفسد اخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه · فان التعليم — خصوصاً اذا كان مصحوباً بتهذيب الاخلاق — يرفع المرأة ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفكر وتتأمل وتتبصر في اعمالها · وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع ان ألوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم او خادمة او دلالة او جارة عجوز ·

والحقيقة ان طهارة القلب في الغرائز والطبائع · فان كانت المرأة صالحة زادها علمها صلاحاً وتقوى : وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً · وهكذا الحال في الرجال · وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لايمنع من تعاطيه · فقد قال الله في شأن كتابه : « يُضِل به كثيراً ويَهدي به كثيراً · وما يُضل به الا الفاسقين » ·

فاثر التعليم لايمكن ان يكون ضرراً محضاً · ولا يمكن ان يكون منشأً حقيقياً لضرر · والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور اكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها · بخلاف الجاهلة فان من اخلاقها الطيش والخفة · وأذكر ملاحظة واحدة

تؤيد ماقدمته وهو ان نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهنَّ في الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً اياماً واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما وتراهنَّ في الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار يغضضن أبصارهنَّ عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفيّ . أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهنَّ ان يكون باطنهنَّ خيراً من ظاهرهنَّ ومتى رأت الواحدة منهنَّ رجلاً نظرت اليه وتأملته والتفتت نحوه ولوت عنقها اليه ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهنَّ في الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالادب التى يستحي القلم عن ان يجري برسمها : هذا الفريق من الاجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها اهل الخلاعة

ثم ان البطالة التى ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتهن هي ام الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتاباً ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ اقول لك وانت تعلم مثلى ان مايشغل امرأة الغني والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى مالا نهاية له و يتشكل في كل آن بشكل جديد وهو

ينبوع رضاها او سخطها على حسب الاحوال . ذلك الأمر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل انه يكرهها . وتارة تظن انه يحبها . واحيانا تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً او خاسراً واحيانًا تجرب ميله لتعلم هل تغير او هو باق . واحيانًا تدبر طريقة لتغير قلبه على ذوي قرابته لتنزع منه محبتهم ان كان ودوداً لهم . ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائمًا موضوع الشك . ومن وسائل الاحتياط ان لاتقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر و بشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها . ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا أفرغته في اذن اخرى من امثالها. فاذا فرغت من تصويره في العبارات رجعت الى تمثيله في الخيالات وهكذا . لهذا ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير و بخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ما بينها و بين زوجها واقارب زوجها وأصحاب زوجها وحزنها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل ما في صدرها حتي لايبقى سر من اسرارها — ولو كان متعلقًا بالفراش — الا وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . اما اذا كانت لاتميل لزوجها . او كانت غير متزوجة فأ كرر سؤالي بماذا تشتغل حينئذ؟ اما الاولى فانها تفكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . اما الثانية

فاعظم همها ان تشتغل كذلك بالبحث عن زوج ايّا كان ولا تضيع وقتها في حسن انتقاء الرجل الذي يصح ان يكون لها زوجاً فانها انما تطلب رَجلا . ومن البديهي ان المرأة التي يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد ان تقدم له افضل شيء لديها وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون امر النساء المتعلمات . اذا جري القدر عليهنّ بامر مما لايحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام باحوال المحبوب وشمائله وصفاته فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت وهي تحاذر ان تضع ثقتها في شخص لايكون اهلا لها ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الامزجة . وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي مافي نفسها عن اخص الناس بها

والمعوّل في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على ان تشغل اوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية وتربت بين اهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل مايؤثر في مشاعرها اثراً غير صالح او يهيج حسها الى امر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسية — كان من النادر ان

تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقي بنفسها في غمرات الشهوات التي لاتسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم

وبالجملة فانا نرى ان تربية العقل والاخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل . بل هي الوسيلة العظمى لان يكون في الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما ان يترديا في اول حفرة تصادفهما في الطريق

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب بوجه اجمالي في كتاب نشرته باللغة الفرنساوية من اربع سنين مضت رداً على الدوك داركور و بينت هنالك اهم المزايا التي سمح لي المقام بذكرها ولكن لم اتكلم فيما هو الحجاب ولا في الحد الذي يجب ان يكون عليه · وهنا اقصد ان اتكلم في ذلك

ربما يتوهم ناظر انني ارى الآن رفع الحجاب بالمرّة · لكن الحقيقة غير ذلك · فانني لا ازال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلا من اصول الادب التي يلزم التمسك بها · غير اني اطلب ان يكون منطبقاً على ماجاء في الشريعة الاسلامية · وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ماتعارَفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالاحكام حتي تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الامة

والذي أراه في هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ولا ترضاه عاطفة الحياء · وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الادوات او متاعاً من المقتنيات وحرمناها من كل المزايا العقلية والادبية التي اعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية · وبين هذين الطرفين وسط سنبينه — هو الحجاب الشرعي — وهو الذي ادعو اليه

اني اشعر ان القارئ الذي سار معي الى هذه النقطة وتبعني فيما دعوته اليه من وجوب تربية النساء ربما يستجمع قواه لمقاومتي فيما اطلب من الرجوع بالحجاب الى الحد الشرعي و يستنجد جميع الاوهام التي خزنتها في ذهنه اجيال طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الآن · ولكن مهما استجمع من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة عليها فلا سبيل الى ان تبقى زمناً طويلاً

ماذا تفيد الشجاعة والثبات في المحافظة على بناء آل أمره الى الخراب والتهدم وقد انقضّ اساسه وانحلت مواده ووصل حاله من الاضمحلال الى انك ترى في كل سنة تمر جزءًا منه ينهار من نفسه ؟ أليس هذا كله صحيحاً ؟ أليس حقاً ان الحجاب في هذه السنين الاخيرة ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد ان النساء في كثير من العائلات يخرجن لقضاء حاجاتهن ويتعاملن بانفسهن مع الرجال

فيما يتعلق بشؤونهن و يطلبن ترويح النفس حيث يصفو الجوّ و يطيب الهواء و يصحبن ازواجهن في اسفارهم · ونرى ان هذا التغير حدث في عائلات كانت اشد الطبقات تحرّجاً من ظهور النساء ؟ اذا قارنا بين مانشاهد اليوم و بين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيدعنا حيث كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها · وان يري طولها اجنبي وكان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلاً حتي لا يراها احد من الناس · وحيث كانت ام الرجل او اخته او بنته تستحي ان تجلس معه على مائدة واحدة — اذا قارنا بين هذا وذاك نجد بلا شك ان هذه العادة آخذة في الزوال من نفسها

وكل من عرف التاريخ يعلم ان الحجاب دور من الادوار التاريخية لحياة المرأة في العالم· قال لاروس تحت كلمة خِمار: « كانت نساء اليونان يستعملن الخِمار اذا خرجن ويخفين وجوههن بطرف منه كما هو الآن عند الامم الشرقية » · وقال: « ترك الدين المسيحي للنساء خِمارهن وحافظ عليه عند مادخل في البلاد فكن يغطين رؤوسهن اذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة · وكانت النساء تستعمل الخمار في القرون الوسطى خصوصاً في القرن التاسع · فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الارض تقريباً · واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث صارت النساء تخفف منه الى ان صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد · ولكن بقي بعد ذلك بزمن

في اسبانيا وفي بلاد امريكا التي كانت تابعة لها »

ومن هذا يرى القاريء ان الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً بنا ولا ان المسلمين هم الذين استحدثوه . ولكنه كان عادة معروفة عند كل الامم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقي . وهذه المسئلة المهمة يلزم البحث فيها من جهتيها الدينية والاجتماعية :

١

« الجهة الدينية »

لو أن في الشريعة الاسلامية نصوصاً تقضي بالحجاب على ماهو معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب عليّ اجتناب البحث فيه ولما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة في ظاهر الامر لان الاوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة . لكننا لانجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة . وانما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها واخذوا بها و بالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لانرى مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب ان نلم بها ونبين حكم الشريعة في شأنها وحاجة الناس الى تغييرها .

جاء في الكتاب العزيز :

«قُلْ للمؤمنينَ يَغضُّوا مِنْ أبصارِهم ويَحفظوا فروجَهم . ذلكَ أزكى لَهُم . انَّ اللهَ خَبيرٌ بِما يصنعُونَ . وقُلْ للمؤمناتِ يَغضُضْنَ من أبصارِهِنَّ وَيَحفظنَ فروجَهنَّ ولا يُبدِينَ زِينتَهُنَّ الاَّ ماظهَرَ مِنها . وليَضرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جيوبِهِنَّ ولا يُبدِينَ زينتَهُنَّ الاَّ لِبعولتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أو آباءِ بعولتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أوْ أبناءِ بعولتِهِنَّ أو إخوانِهِنَّ أو بني إخوانِهِنَّ أو بني أخَواتِهِنَّ أو نِسائِهِنَّ أو ما ملكَتْ أيمانُهُنَّ أو التابعين غيرِ أولي الإِربَةِ من الرجال او الطفلِ الذين لم يَظهروا على عوْراتِ النساء . ولا يَضرِبْنَ بأرجلِهِنَّ ليُعلَمَ ما يُخفِينَ من زِينتِهِنَّ»

أباحت الشريعة في هذه الآية للمرأة ان تظهر بعض اعضاء من جسمها أمام الاجنبي عنها غير انها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على ان الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية ووقع الخلاف بينهم في اعضاء أخر كالزراعين والقدمين .

جاء في بن عابدين : « وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل في الأصح خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد . وصوتها علي الراجح وزراعيها على المرجوح . وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لا لأنه عورة بل لخوف الفتنة كمسه وان أمن الشهوة لانه اغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتي في الحظر . ولا يجوز النظر

اليه بشهوة كوجه أمردَ . فانه يحرم النظر الى وجهها ووجه الامرد اذا شك في الشهوة . اما بدونها فيباح ولو جميلاً » (١)

وذكر في كتاب الروض في المذهب الشافعي : « نَظَرُ الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز . ويجوز نَظَرُ وجهِ المرأة عند المعاملةِ وعند تحمل الشهادة . وتكلف كشفه عند الأداء » (٢)

وجاء في تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن علي الزيلعي : « وبدن الحرة عورة الا وجهها وكفها وقدميها لقوله تعالى « ولا يُبدين زينتهن الا ماظهر منها » والمراد محل زينتهن وما ظهر منها الوجه والكفان . قاله بن عباس و بن عمر . واستثنى في المختصر الاعضاء الثلاثة للابتلاء بابدائها ولانه عليه الصلاة والسلام نهى المحرِمة عن لبس القفّازين والنقاب . ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترها بالمخيط . وفي القدم روايتان والأصح انها ليست بعورة للابتلاء بابدائها » (٣)

وحكم الوجه والكفين وأنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة . ولانطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين

ومما يروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « ان اسماء بنت ابي بكر دَخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاقٌ فقال

« ١ » صحيفة ٣٣٦ جزء ١ « ٢ » صحيفة ١٠٩ و ١٠٤ جزء ٢
« ٣ » صحيفة ٩٦ جزء ٣

لها يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يُري منها الا هذا وهذا واشار الى وجهه وكفيه » . وورد ايضاً في كتاب حسن الاسوة للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رُخِّص للمرأة في هذا القدر لأن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » (١)

خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق وألقت عليها تَبعة اعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق في ادارة اموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل ان يتعاقد معها من غير ان يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلّفة من رأسها الى قدميها او تقف من وراء ستار او باب ويقال للرجل ها هي فلانة التى تريد ان تبيعك دارَها او تقيمك وكيلاً في زواجها مثلاً . فتقول المرأة بعت او وكلت ويكتفي بشهادة شاهدين من الأقارب او الاجانب على انها هي التى باعت او وكلت والحال انه ليس في هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها احد . وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الاحوال . فكم رأينا ان امرأة تزوّجت بغير علمها وأجّرت املاكها بدون شعورها . بل تجردت من كل ماتملكه

« ١ » صحيفة ٩٢

على جهل منها · وذلك كله ناشيء من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها ·

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة او تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال ؟ كيف يتسني لزارعة محجوبة ان تفلح ارضها و تحصد زرعها ؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها اذا أجرت نفسها للعمل في بناء بيت او نحوه ؟

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانساني ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه في الوصول اليه · ووضع للتصرف فيه حدوداً تتبعها حقوق · وسوّي في التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع · ولم يقسم الكون بينهما قسمة إفراز · ولم يجعل جانباً من الارض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانباً للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء · بل جعل متاع الحياة مشتركاً بين الصنفين شائعاً تحت سلطة قواهما بلا تمييز — فكيف يمكن مع هذا لامرأة ان تتمتع بما شاء الله ان تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين الرجال اذا حُظِر عليها ان تقع تحت اعين الرجال الا من كان من محارمها ؟ لاريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل · لهذا رأينا

ان الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند اغلب الطبقات من المسلمين كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى حتى من اهل الطبقة الوسطى بل وبعض اهل الطبقة العليا من اهل البادية والقري : والكل مسلمون بل قد يكون الدين امكن فيهم منه في اهل المدن !

اذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما او شاهدا كيف ان يسوغ لها ستروجهها ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما يهم في هذه المسئلة متساهلون فى رعاية الواجب فيها . فهم يقبلون ان تحضر المرأة امامهم مستترة الوجه وهي مدّعية اومدّعى عليها اوشاهدة وذلك منهم استسلاماً للعوائد . وليس بخاف مافي هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما اظن . ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر ولما فى ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من اهمها صحة التمسك بقولها . ولا اظن انه يسوغ للقاضي ان يحكم على شخص مستتر الوجه ولا ان يحكم له . ولا اظن انه يسوغ له ان يسمع شاهدا كذلك . بل اقول ان اول واجب عليه ان يعرف وجه الشاهد والخصم خصوصاً في الجنايات . والا فاي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده؟ وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروفا بشخصه؟

والحكمة في ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهرة . وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو على الوجه والعلامات التي تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لا ريب ان ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج في حكمة إباحة الشرع الاسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها — ونحن لا نريد أكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب ايضاً على انه يجوز للخاطب ان ينظر الى المرأة التي يريد ان يتزوجها . بل قالوا بندبه عملاً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار — وكان قد خطب امرأة —: «أنظرت اليها» — قال لا — قال: «انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما» .

هذه هي نصوص القرآن وروايات الأحاديث واقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية في ان الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التي لا يصعب اداركها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسر فيه لا على النساء ولا على الرجال . ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى مافيه من الحرج عليهما في المعاملات والمشقة في اداء كل منهما ما كلف به من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً او تكليفاً قضت به ضرورة المعاش

اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا إخالها صحيحة لأنه

لا أصل يمكن ان ترجع اليه هذه الدعوى. وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحداً بالنسبة للرجال والنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى تراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسئلة تقريباً فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته . وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره كما أنه على من يخافها من النساء ان تغض بصرها. والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

عجباً! لِمَ لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل اضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه. واعتبرت المرأة اقوى منه في كل ذلك حتى ابيح للرجال ان يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال . ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف ان ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط في الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخَلق ؟ . ان زعم زاعم صحة هذا

الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بان المرأة اكمل استعدادا من الرجل — فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال ؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم هذا التحكم المعروف ؟

على ان البرقع والنقاب مما يزيد فى خوف الفتنة . لأن هذا النقاب الابيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من خلفه العيوب . والبرقع الذي يختفى تحته طرف الانف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والاصداغ وصفحات العنق — هذان الساتران يعدان فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر . ولو ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها

ليست اسباب الفتنة مايبدو من اعضاء المرأة الظاهرة . بل من اهم اسبابها مايصدر عنها من الحركات فى اثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التى ترشد عما فى نفسها . والنقاب والبرقع من اشد اعوان المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ماتعمل لتحريك الرغبة . لانهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف ان يعرفها قريب او بعيد فيقول فلانة اوبنت فلان او زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ماتشتهيه من ذلك تحت حماية ذاك البرقع وهذا النقاب . اما لوكان وجهها مكشوفاً فان نسبتها الى عائلتها او شرفها في نفسها يشعرانها الحياء والخجل

ويمنعانها من ابداء حركة اوعمل يتوهم منه ادنى رغبة منها فى استلفات النظر اليها ·

والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية لاللتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام والباقية بعده · ويدلنا على ذلك ان هذه العادة ليست معروفة في كثير من البلاد الاسلامية وانهما لم تزل معروفة عند اغلب الامم الشرقية التى لم تدين بدين الاسلام

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو صريح الآية وليس فى ذلك شيء من التبرقع والانتقاب ·

هذا مايتعلق بكشف الوجه واليدين · اما مايتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها ان تخالط الرجال فالكلام فيه ينقسم الى قسمين : ما يختص بنساء النبى صلى الله عليه وسلم · وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين · ولا أثر في الشريعة لغيرهذين القسمين

اما القسم الاول فقد ورد فيه ماياتى من الآيات :

« ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي الاان يؤذن لكم · واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب · ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن · وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولاان تنكحوا من بعده ابداً · ان ذلكم كان عند الله عظيماً » ·

« يانساء النبى لستن كأحد من النساء · ان اتقيتن فلا

تخضعنَ بالقول فيطمع الذى في قلبه مرضٌ · وَقُلْنَ قولاً معروفاً وَقَرْنَ في بيوتكُنَّ ولا تبرّجنَ تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأولى »

ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من اى مذهب كانت ولا في كتب التفاسير فى ان هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم · أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو انهن لسن كأحد من النساء · ولما كان الخطاب خاصاً بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت اسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على احد من نساء المسلمين · (١)

واما القسم الثاني فغاية ماورد فى كتب الفقه عنه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الاجنبي وهو : « لايخلونّ رجل بامرأة الا مع ذي محرمٍ » قال بن عابدين : « الخلوة بالأجنبية حرام الا للملازمة مديونة هربت ودخلت خربة او كانت عجوزاً شوهاء او بحائل — وقيل الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة تحريم · وعن ابى يوسف ليست بتحريم » (٢)

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفي بالحائل وبوجود محرم او امرأة ثقة قادرة — وهل تنتفي ايضاً بوجود رجل آخر ؟ لم أره » (٣)

ربما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء

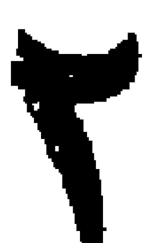
« ١ » صحيفة ١٢٦ من كتاب حسن الاسوة « ٢ » صحيفة ٣٢٣ جزء خامس
« ٣ » صحيفة ٣٢٤ جزء خامس

المسلمين كافة — فنجيب ان قوله تعالى « لستنّ كأحد من النساء » يشير الى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم وينبهنا الى ان في عدم الحجاب حكماً ينبغي لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة . وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير او تخفيف كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق او تعطيل لشيء من مصالح الحياة وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى : « يريد بكم اليسرَ ولا يريد بكم العسرَ » . وقال : « ما جعل عليكم في الدين من حرَج » . وقال ايضاً : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء إن تبدَ لكم تسؤكم » . ولو كان اتباع الأسوة مطلوباً في مثل هذه الحالة لما رأينا احد الخلفاء المشهورين بشدّة التقوى والتمسك بالسنة يجري في عائلته على ما يخالف الحجاب . وأستدِل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بواقعة حربية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال : « فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من ارم محشوتين ليفاً فنبذ اليّ باحديهما فجلست عليها واذا بهو في صفّة فيها بيت عليه ستير فقال : «يا أم كلثوم غداءنا » فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق . فقال : « يا أم كلثوم الا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ » قالت : « اني اسمع عندك حس رجل » . قال : «نعم ولا اراه من اهل البلد » . قال فذلك حين عرفت انه

لم يعرفني قالت : « لو اردتَ ان اخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » — قال : « او ما يكفيك ان يقال أم كلثوم بنت علي بن ابي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر » — فقال كل فلو كانت راضية لأطعمتك اطيب من هذا » (١)

وفضلاً عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فانه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى نأتي على بيانها في المبحث الآتي :



« الجهة الاجتماعية »

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى احكام الشريعة الاسلامية لا لانا نميل الى تقليد الأمم الغربية في جميع اطوارها وعوائدها لمجرد التقليد او للتعلق بالجديد لانه جديد . فانا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ونرى أنها مزاج الأمة التي تتماسك به اعضاؤها ولسنا ممن ينظر اليها نظره الى الملابس يخلع ثوباً كل يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لانا نعتقد ان لرد الحجاب الى اصله الشرعي مدخلا عظيماً في حياتنا المعاشية . لسنا في مقام استحسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق او منافرته . وانما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة او ما به قوام حياتنا .

كلامنا الآن في هل يلزمنا ان نعيش ونحيى او نقضي على انفسنا بأن نموت ونفنى ؟ هل علينا ان نهتز مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه آباءنا

(١) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبري جزء خامس

والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة ويمرون علينا سراعاً ونحن شاخصون اليهم اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكنا حيارى ذاهلون ؟ او من الواجب علينا ان ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا . كيف تقووا وضعفنا . كيف سعدوا وشقينا . ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية في ديننا وما كان عليه اسلافنا الصالحون . ثم نقتدي بهم في استماع القول واتباع احسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ونسير في طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ؟ ذلك هو الامر الخطير الذي وجهنا اليه نظرنا .

ها هي مسئلة الحجاب مسئلة من أهم المسائل ولها مكان عظيم في شؤون الأمة . اذا ترك القارئ نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن لإنه ألفه في صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفة له . ثم انه ورثه عن آبائه واجداده فلا يستغربه بل يميل اليه ميلاً غريزياً ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا . وأما اذا نزع من نفسه العوامل التي احدثت فيه تلك العواطف وخلع ما البسه اياه اسلافه من أردية الوراثة وبحث في المسئلة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر الا بالتجربة التي تجري في الوقائع الصحيحة وحصل لنفسه رأياً من ملاحظاته الشخصية . وكان ممن تجذب نفسه الى الحق وتنبعث الى السعي للوقوف عليه وتأييده لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع . وكان لا يخش

نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين وانما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس — فعند ذلك يرى ان المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الاّ اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها . ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها .

بينا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التي تترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها وفي الاجتماع الذي هي فيه . وذكرنا ان من اكبر اسباب ضعف الامة حرمانها من اعمال النساء وان تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت أمه مرباة . وقررنا ان الولد ذكراً كان او أنثى لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلاً ولا عاطفة الامن طريقين : الوراثة والتربية . واستدللنا على ان الولد يرث من امه قدر ما يرث من والده على الاقل . وان تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته اعظم من تأثير ابيه . ونريد ان نبرهن هنا على ان تربية الأم نفسها لا يمكن ان تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الآن حتى اذا انتهى القارىء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض وكيف ان اصغرها يتوقف عليه اعظمها :

اذا أخذنا بنتاً وعلمناها كل ما يتعلمه الصبي في المدارس الابتدائية

وربيناها على اخلاق حميدة ثم قصرناها في البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك انها تنسى بالتدريج ماتعلمته وتتغير اخلاقها على غير شعور منها وفي زمن قليل لا نجد فرقاً بينها وبين اخرى لم تتعلم أصلاً · ذلك لأن المعارف التي يكسبها الانسان وهو فى سن الصبا لايحيط بدقائقها ومناشئها ولذلك لايكون علمه فيها علماً تاماً كاملاً · وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال · فالصبي يحفظ اسماء الاشياء اكثر مما يفهم معانيها وأكبر فائدة يستفيدها في هذا الطور من التعليم انما هي التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة · فان وقف سير التعليم في هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئاً فشيئاً وكان مامضى من الوقت في التعلم زمناً ضائعاً ·

ولما كان السن الذي تحجب فيه المرأة ـ وهو مابين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها ـ هو السن الذي يبتديء فيه الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث في الحياة وما تستدعيه · وهو السن الذي تزهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات · وهو السن الذي يتعلم فيه الانسان نوعاً آخر من العلم أنفس مما تعلمه في المدارس وهو علم الحياة وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم · وفي هذا السن يبتديء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه

ودينه وحكومته · وفي هذا السن يبتدىء استعداد كل شخص وميله وكفاءته في الظهور فيندفع الى الأعمال اندفاع الماء في المنحدرات · وهو سن الآمال والرغائب والنشاط — فان حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد ان كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها بل رجعت القهقري وفقدت كل ما كان يزين نفسها ونسيت كل معارفها وخابت كل مساعيها وضاعت آمالها وآمال الناس فيها : ولا ذنب عليها في ذلك فهي عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان المؤبد من الترقي والكمال ·

ربما يقال ان في طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها في بيتها وهو وهم باطل · فان الرغبة في اكتساب العلم والتشوف لاستطلاع ماعليه الناس في احوالهم واعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الي المطالعة والدرس لايتوفر للمرأة مع حجابها · ذلك لان الحجاب يحبس المرأة في دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا مايقع فيها من سفاسف الحوادث ويحول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفاً مقلوباً · اما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي فانها تكتسب بالنظر في حوادثه وتجربة مايقع فيه معارف غزيرة تنبث فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم في جميع مظاهر الحياة · وقد يكفي في اعانتها

على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى وربما يمكنها أن تستغني عن تعلم تلك المعارف الأولى اذا حسنت الفطرة وجادت القريحة

وعلى فرض ان المرأة يمكنها في احتجابها ان تستكمل ما نقص منها علماً وأدباً بقراءة الكتب فمن البديهي ان كل ما تحصله من الكتب يعد من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا اخوتها الصبيان كما نعاملها وحجبناهم في البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الاربعين من عمره وحجبناه عن العالم وألزمناه ان يعيش بين اربعة جدران وسط النساء والاطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجي في قواه العقلية والأدبية ولا بد ان يأتي يوم يجد فيه نفسه مساوياً لهم . فاذاً يكون من الخطأ أن نتصور انا متى علمنا بناتنا جاز لنا ان نحجبهن متى بلغن سناً مخصوصاً وان مجرد ذلك التعليم الأول يكفي في التوقي من الضرر . لان الضرر في الحجاب عظيم وهو ضياع ما كسبنه بالتعلم وحرمانهن من الترقي في مستقبل العمر والأمر في ذلك واضح لا يحتاج الى دليل . ويكفينا ان نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه في الخامسة عشرة من عمرنا فيتبين لنا اننا كنا أشبه بالاطفال لا نكاد نعلم شيئاً من العالم ولا نعرف للحياة قيمة ولا نميز كمال التمييز بين ما لنا وما علينا ولا تمتاز لدينا حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة في مجاهدة أنفسنا . وان أكبر

عامل له أثر في تكميلنا هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمراراً لا انقطاع معه · وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة والممارسة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث

وفي الحقيقة ان تربية الانسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا حد معروف تنتهي عنده · فهي لا تنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف يجهد الانسان نفسه في اكتسابه في سنين معدودة ثم يقضي حياته بعد ذلك في الراحة ·

التربية ليست ذلك الشيء البسيط الذي يفهمه عامة الناس حيث يتصوَّرون انها عبارة عن تخزين كية من المعارف المقررة في پروجرامات المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها الاَّ البطالة والجمود · وانما التربية هي العمل المستمر الذي نتوسل بهِ النفس الى طلب الكمال من كل وجوههِ · وهذا العمل لا بد منه في جميع ادوار الحياة حيث يبتدئ من يوم الولادة ولا ينتهي الاَّ بالموت ·

واذا أراد القارئ ان يتبين صحة ما اسلفته من مضار الحجاب على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الاَّ ان يقارن بين امرأة من أهله تعلمت و بين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن لم يسبق لها تعليم · فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة اجنبية وتلعب البيانو ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير امرها وتقويم حياتها · وان الثانية مع جهلها قد

أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الاعمال والدعاوي والحوادث التي مرت عليها وان كل ذلك قد أفادها اختبارًا عظيماً : فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى.

ومن هذا نرى اغلب نساء نصارى الشرق وان لم يتعلمن في المدارس أكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن فهنَّ يعرفن لوازم الحياة لكثرة ما رأين وسمعن باختلاطهنَّ بالرجال فقد ورد على عقولهنَّ معانٍ وافكار وصور وخواطر غير ما استفدنه من الكتب فارتقين بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من للمرأة المسلمة المواطنة لهن مع انهن من جنس واحد واقليم واحد.

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لان تكون مساوية لغيرها من الأمم الأخرى لكنها اليوم في حالة انحطاط شديد. وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جرَّدناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقرَّرة لها و بخسناها قيمتها.

وقد جرنا حبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهنَّ فألزمناهنَّ القعود في المساكن وحرمناهنَّ الهواء والشمس وسائر انواع الرياضة البدنية والعقلية

ليس فينا من لا يعرف ان من النساء من لا يفارقن بيوتهنَّ لا ليلاً ولا نهارًا بل يلازمنها ولا يرَين لهنَّ شريكاً في الوجود الا جارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتنصرف عنها. ولا يرَين

ازواجهنَّ الاَّ عند النوم لانهم يقضون نهارهم في اشغالهم ويقضون الجزء العظيم من ليلهم عند جيرانهم او في الاماكن العمومية

ليس فينا من لا يعرف ان نساءً كثيرة فقدن صحتهنَّ في هذه المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد · وانهنَّ عشن عليلات الجسم والروح ولم يذقن شيئاً من لذَّة هذه الحياة الدنيا ·

لذلك كان اغلب نسائنا مصاباً بالتشحم وفقر الدم ومتى ولدت المرأة مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهي في ريعان شبابها : كل ذلك منشأه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على ان القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد قول لا يمكن الاستدلال عليه لانه لم يقم احد الى الآن باحصاء عام يمكن ان نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد التي تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الاخرى التي تتمتع فيها بحريتهنَّ · ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلاً على الاثبات أو النفي في المسئلة لان ازدياد الفساد في البلاد ونقصه مما يرتبط بامور كثيرة ليس الحجاب اهمها

ومن المعروف ان لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها وتربيتها دخلاً عظيماً في فساد اخلاقها وصلاحها · ولهذا نرى الفساد يختلف في بلاد اوروبا بين بلد وآخر اختلافاً ظاهراً ونرى ايضاً مثل هذا الاختلاف بين البلاد التي لا تزال فيها عادة الحجاب باقية · بل

نرى اختلافاً كبيراً بين زمن وزمن في بلد واحد . والتجارب ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلاً على ان الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب . فمن المشاهد الذي لا جدال فيه ان نساء امريكا هنّ أكثر نساء الأرض تمتعاً بالحرية وهنّ أكثرهنّ اختلاطاً بالرجال حتى ان البنات في صباهنّ يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقي العلوم . ومع هذا يقول المطلعون على احوال امريكا ان نساءها احفظ للاعراض وأقوم أخلاقاً من غيرهنّ وينسبون صلاحهنّ الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحياة . ومن المشاهد الذي لا نزاع فيه ايضاً ان نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهنّ بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللائي لم يمنعهنّ الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في المفاسد

وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة . والسبب في ذلك ان الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فاذا رأت رجلاً أياً كان لم يحرك منظره فيها شيئاً من الشهوة . بل لو عرض عليها شيء من هذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات في خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب الى الآخر : وهذا هو ما منعته الشريعة وبينا امتناعه فيما سبق . اما الثانية فمجرد وقوع نظرها على

رجل يحدث في نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد ولا نية سيئة · وانما هو أثر منظر الرجل الاجنبي لانه قد وَقَرَ في نفسها أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر اليه كاف في اثارة هذا الخاطر

وقد شاهدت مراراً كما شاهد غيري هذا الأثر عينه في الرجال · فرأيت ان الرجل الذي لم يتعوّد الاختلاط بالنساء ان لم يغلبه سلطان التهذيب القوي لايملك نفسه اذا جلس بينهن · فلا تشبع عينه من النظر اليهن ومن التأمل في محاسنهن وينسى في ذلك كل أدب ولياقة · وربما طلب الوسائل للامستهن بيده أو مماستهن بكتفه ويندفع الى أقوال وأعمال تشمئذ منها نفوس الحاضرين كأنه يظن — بل هو يظن بالفعل — انه لامعنى لاجتماع الرجل مع المرأة في مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما بشهوته مع الآخر · بخلاف الرجل الذي اعتاد على مخالطة النساء فانه لايكاد يجد في نفسه أثراً من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ولا يشعر بأدنى اضطراب في حواسه ولا في مشاعره · فمن ألزم لوازم الحجاب انه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معاً لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو سماع الصوت · وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من ان المرأة اذا رأت رجلاً في الطريق أودعتها الضرورة لمخاطبته تصنع في حركاتها وصوتها ما تظن انه يروق في عين الرجل — والرجل كذلك ·

وقد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد أوروبا وفي الاستانة وفي القرى المصرية وبين الاعراب في البادية حيث يمر

الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت احدهم الى الآخر:

ولا ريب ان استلفات الذهن دائماً الى اختلاف الصنف من أشد العوامل في اثارة الشهوة

وبديهي ان المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر اضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة . فان عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهي اختيارية والفرق كبير بينهما . ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد انهنّ مصونات بقوّة الحراس واستحكام الاقفال وارتفاع الجدران ؟

أيقبل من مسجون دعواه انه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس ؟ فاذا كانت نساؤنا محبوسات محجوبات فكيف يمكنهنّ أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال انهنّ عفيفات ؟ ان العفة هي خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الالهي انما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لا بما يستكره عليه من الاعمال . فالعفة التي تكلف بها النساء يجب ان تكون من كسبهنّ ومما يقع تحت اختيارهنّ لا أن يكن مستكرهات عليها والاَّ فلا ثواب لهنّ في مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد " .

والحقيقة اننا نعمل عمل من يعتقد ان النساء عندنا لسنَ أهلاً

للعفة . أليس من الغريب ان لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصوّر ان أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهنّ ؟ أيليق أن لا نثق بهؤلاء العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهنّ الى هذا الحد ؟

اني اسأل كل انسان خالي الغرض : هل هـذه المعاملة يليق ان يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا لهُ روح ووجدان وقلب وعقل وحواس . وهل سوء الظن في المرأة الي هـذا الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعـاقل يرى ان الاحتياط الذي يتخذه الرجال لصيانة النساء عندنا مهمـا بلغ من الدقة لا يفيد شيئاً ان لم يصل الرجل الى امتلاك قلب امرأته . فاذ ملكه ملك كل شيء منها وان لم يملكه لم يملك منها شيئاً . ذلك لانه ليس في استطاعة رجل ان يراقب حركات امرأته وسيرها في كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج احدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلى م يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل ان يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ أيستطيع أَن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لأَي شخص تريد ؟ فاذا رأت امرأة من الشباك رجلاً فأَعجبها ومالت اليه بقلبها وودت أن تواصله لحظة أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجـاب

العفة في هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب لان العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب . ولكن في نظر أهل الأدب والتقوى لا عبرة للبعد بين الاجساد اذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ما الذي فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجرى في داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كلا .

ربما يقول قائل ان ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء اكثر مما كنا نسمعه سابقاً وان الاشاعات عن الفساد أشد انتشاراً . بل ربما كان الفساد في الواقع أوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلاً ولا منشأ لذلك الا رقة الحجاب . فالحالة القديمة على ما فيها كانت أصون للاعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء — فنجيب عن ذلك باننا لا ننكر ان بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سبيلاً من تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واتيان ما تميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه انه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن — والنفوس على ما هي عليه — لعمت البلوى وازداد الفساد انتشاراً .

غير ان السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب . بل هو راجع

الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية ·

فسوء التربية هو علة الخفة والطيش · وهو الذي يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها ان تطيل نظرها الى شاب يمر في طريقها · وسوء التربية هو الذى يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها · وسوء التربية هو الذي يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقى بل والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها · وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولا عن درجة من العرفان ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين ·

سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة من الفساد كل باب · وهو الذي يخشى معه أن تسرى العدوى من امرأة الى امرأة ومن طبقة الى طبقة · فقد نرى ان المحجبات مهما بالغن في التحجب لا يستنكفن أن يخالطن بنساء أحط منهنَّ في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة · فسيدة المنزل لا ترى بأساً في مخالطة زوجة خادمها بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها · ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وبائعات الاقمشة · بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئاً من حالهنَّ ولا من أي مكان أتين ولا بأي خلق

من الاخلاق تخلقن. وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا في افساد الاخلاق ان نساء من المومسات اللاتي يحملن تذكرة رسمية يدعون في الافراح ويرقصن تحت أعين الامهات والبنات والكبار والصغار!

هـذا ما يأتي من سوء التربية وهو من أشد العوامل في تمزيق ستار الأدب وليست رقة الحجاب بشيء في جانب هذا كله.

طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمنا أنهم أرقى منا وأشد قوة. ومال ذلك بالجمهور الاغلب منا الى تقليدهم في ظواهر عوائدهم خصوصاً ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقاً من قيد. فكان من ذلك ان كثيراً من أعيائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحوا لهن في الخروج الى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك وقلدهن في ذلك كثير ممن يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد في الاخلاق.

تلك حالة طرأت للاسباب التي تقدمت وتبعها من العواقب ما بيناه. ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا محو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب. بل صار من متممات شؤوننا ان نحافظ عليها ونتقي تلك المضار التي نشأت عنها. وذلك هو ما نستطيعه ايضاً.

اما انه ليس من مصلحتنا ان نمحو هذه الحالة فلما قدمناه في مضار الحجاب على الوجه المعروف. واما اننا لا نستطيع ذلك فلان اسباب

هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة وهي تزداد بمرور الزمان رغماً عنا . ولاننا قد وجدنا من أنفسنا ميلاً الى حسن المعاملة في معاشرة النساء وزين في أنفس الكثير منا حب المجاملة في مرضاتهن ونشأت لهن فى قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل . وأحس النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق حقاً من الحقوق وضرورياً من ضروريات المعيشة : فلا يسهل على الرجل ان يقضي على امرأته اليوم بما كان يقضي به من قبل اربعين سنة .

والذي يجب علينا هو معالجة المضار التي يظن انها تنشأ عن تخفيف الحجاب . ولا توجد طريقة انجع في ذلك العلاج الاّ التربية التي تكون هى الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل فساد يتوهم في أية درجة وصلت اليها من الحرية والاطلاق .

سيقول معترض ان التربية والتعليم يصلحان اخلاق المرأة واما الاطلاق فربما زاد في فسادها . فنجيب ان الاطلاق الذي نطالب به هو محدود بحظر الخلوة مع اجنبي . وفي هذا الحظر ما يكفي لاتقاء المفاسد التي لا تتولد الا من الخلوة . اما الاطلاق في نفسه فلا يمكن ان يكون ضاراً ابداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية الصحيحة تكوّن افراداً اقوياء بانفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون بانفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن نقصت تربيته احتاج الى الغير في كل أموره . فالاستقلال في النساء

كالاستقلال في الرجال يرفع الانفس من الدنايا ويبعد بها عن الخسائس : لذلك يجب ان يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء

حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان في تقدم الرجال في كل زمان ومكان . وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها . وهما من أشرف الوسائل لابلاغها من الكمال ما أعدت له . فكيف يمكن لعاقل ان يدعي ان لهذين العاملين اثراً آخر سيئاً في أنفس النساء ؟ ومن زعم ان التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد الاخلاق في المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التي لا يخلو عنها أمر من الامور النافعة في العالم فان لكل نافع ضرراً اذا أسيء استعماله

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب الكثيرة وكثير منهم يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل احداً من الناس على أن يقول ان من الصواب أن لا يعلم الرجال شيئاً خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوءهم أو يسوء غيرهم . وان من الواجب أن يتركوا في الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن ان عاقلاً يخطر هذا الخاطر بباله . فاذا كان اجماعنا قد انعقد على أن لا خير للرجال في الجهل والاستعباد . وان لا سبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا بالعلم وحرية الفكر والعمل . فما لنا نختلف في هذه القضية نفسها اذا عرض ذكر المرأة ؟ وأي فرق بين الصنفين في الفطرة والخلقة ؟

والحق انا غالينا فى اعتبار صفة العفة في النساء وفي الحرص عليها وفى ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شيء فداءها وطلبنا ان يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شيء في المرأة وأبهى حلية تتحلى بها . ولكن العفة لا تغني شيئاً عن بقية الصفات والملكات التي يجب أن تتحلى نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام المعيشة في البيت والقيام على كل ما يعهد اليها من الشؤون الخاصة بها. بل نقول ان لهذه الصفات دخلاً كبيراً في كمال العفة وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لا ينقص في ضرره وفي الحط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على ان عقد الزواج وحده هو الذي يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت . ذلك أمر اقتضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية فالعمل على ما يخالفه قبيح مذموم بلا ريب . غير أن تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالاً أخرى وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تحط عن منزلة الخنا . ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليه لانها اعتبرت ان لتلك الاعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلاً بجريمة القتل فانها أعظم من جريمة الزنا في نظر الدين والقانون . فلمَ لم تتخذ

للوقاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون في كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب لا تحصى وهذا لم يمنعنا من ان نتحرك ونسعى ونقتحم الاخطار في الاسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه · انا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعج الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك فانا نحتمل مصائبها ونسلم لحكم القدر فيها ونجتهد في تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة · فلمَ لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التي لا يخلو منها مجتمع انساني ؟ ولمَ نتخيل انها أشنع وأفظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها مالم نتخذه لمنع غيرها ؟

وعلى أي حال فليس من الجائز أن نأتي ما فيه ضرر محقق لنتقي به ضرراً وهمياً · فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربما لا يكون · أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لا حق بها حتماً ويا ليته اقتصر عليها ولكنه يتعداها الى كل ما يقع تحت رعايتها ·

يتوهم أحدنا ان امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها فلذلك يزج بها وراء الابواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك انه قد استراح من الوساوس وهو لا يدري ما ربما يأتيه من ··· حيث لا يدري فلم يفده حرصه شيئاً في الحقيقة · ومع هذا فهو بعمله قد قتل

نفساً حيةً وأفسد نفوساً كثيرة ممن تولاهم زوجته في بيته في سبيل ما يظنه راحة لنفسه ·

توهم كثير ممن سبقنا مثل ما توهمنا وحجبوا نساءهم كما نحجب نساءنا بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية زوجاتهم · وانني أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند أعيان أوروبا في القرون الوسطى وهي ما كان يسمى عندهم بنطاق العفة · وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظ ولذلك النطاق قفل يكون مفتاحه في جيب الرجل دائماً · ولكن هذا لم يمنع النساء من أن يمنحن عشاقهنّ مفتاحاً مصطنعاً ! ثم ما لبث هؤلاء الامم أن أدركوا خطأهم وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها · ولما أخذت المعارف تنتشر بينهم شرعوا في قياس أعمالهم الماشية بمقياس العقل السليم والعلم الصحيح الخالص من شائبة الوهم · وادركوا أن سعادتهم لا تتم بما ينالون من ثمار ذلك الا اذا شاركهم نساؤهم في مساعيهم وعاونهم في لم شعثهم وتكميل نقصهم فأعدوهنّ بالتربية والعلم الى ما أملوا منهنّ · فتمكن من أسرهنّ وتمتعن بحريتهنّ وسرن مع رجالهنّ يساوونهم في الحياة ويمدونهم بالرأي في كل أمر · ولست مبالغاً ان قلت ان ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشامخ وما وضعه من الاصول الثابتة انما شيد على حجر أساسي واحد هو المرأة

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نسائهم والتساهل لهنّ في

مخالطتهم قاصراً على المزايا التي أشرنا اليها بل كان لهم مع ذلك فوائد جمة في تدبير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد

تدخل بيت الغربي من اهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاماً واكمل ترتيباً واجمل اثاثاً من بيت الشرقي من اهل طبقته. ومع ذلك تجد نفقة الغربي اقل من نفقة الشرقي بكثير

أنظر الى الواحد منا تجد مسكنه لا بد ان يكون الي قسمين قسم للرجال وآخر للنساء . فان اراد ان يبني بيتاً فعليه أن يهيئ ما يكفي لبناء بيتين في الحقيقة واذا استأجر بيتاً فهو انما يستأجر في الواقع بيتين ويتبع ذلك مايلزم لكل منهما من الاثاث والفرش . ولا بد له من فريقين من الخدم فريق يخدم الرجال في القسم المختص به والآخر يختص بخدمة النساء داخل البيت. ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال لانه ليس من الجائز في عرفنا ان يركب الرجل مع زوجته او مع والدته في عربة واحدة . وهو مضطر لان يزيد في النفقة للطعام وما يتبعه لانه اذا أتى ضيف واحد رجلا كان او امرأة وجب تحضير مائدتين بدل واحدة كانت تكفي . وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات كسب مستهلكة ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء

هل يظن المصريون ان رجال اوروپا مع انهم بلغوا من كمال العقل والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على مانشاهده باعيننا . وان تلك النفوس التي تخاطر في كل يوم بحياتها في

طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة · هل يظنون ان تلك العقول وتلك النفوس التي فحجب بآثارها يمكن ان يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها؟ هل يظنون ان أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لو رأوا خيراً فيه ؟ — كلا · وانما الافراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن اليها نفوسهم ولكنها يمجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق ·

متى تهذب العقل ورق الشعور ادرك الرجل ان المرأة انسان من نوعه لها ماله وعليها ماعليه · وأن لا حق لاحدهما على الآخر بعد توفية مافرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا مايعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره ·

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل عرف ان حجاب المرأة اعدام لشخصها فلا تسمح له ذمته بعد ذلك ان يرتكب هذه الجريمة توسلا الى مايظنه راحة بال واطمئنان قلب ·

متى تهذب العقل ورق الشعور في الزوج وجد من نفسه ان لا سبيل الى اطمئنان قلبه في عشرة امرأة جاهلة مهما كان الحائل بينها وبين الرجال

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل ادرك ان الذ شيء تشتاق اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة · فيسعى جهده في مايقويه ويشد

عراه ويبذل ما في وسعه للمحافظة عليه ·

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل والمرأة لا تقنع نفوسهما بالاختلاط الجسداني وحده بل يصير اعظم همهما طلب الائتلاف العقلي والوحدة الروحية ·

ان طبيعة العصر الذي نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد ميالة الى سوق القوى الانسانية في طريق واحد وغاية واحدة · فهذا الطائف الرحماني الذي طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلاً لا بد ان ينال منه النساء نصيبهن · فمن الواجب علينا ان نمد اليهنّ يد المساعدة ونعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الله في الضعيفين المرأة واليتيم" · ولا شيء ادخل في باب التقوى من تهذيب العقل وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة الشهوات ولا من حسن المعاملة واللطف في المعاشرة · فعلينا ان نجعل الصلة بيننا وبينهنّ صلة محبة ورحمة لا صلة اكراه وقسوة · هذا ما تفرضه علينا الانسانية وتطالبنا به الشريعة وهو مع ذلك فريضة وطنية يجب علينا أداؤها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة قائمة بوظائفها

وقبل ان اختم الكلام في هذا الباب ارى من الواجب عليّ ان انبه القارئ الى اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء على ما هنّ عليه اليوم · فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة

لا يتأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي · وانما الذي اميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير:

فيعودن بالتدريج على الاستقلال و يودع فيهنَّ الاعتقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم · ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة اوليائهنَّ · عند ذلك يسهل عليهنَّ الاستمرار في معاملة الرجال بدون ادنى خطر يترتب على ذلك اللهم الا في احوال مستثناة لا تخلو منها محجبة ولا بادية

المرأة والأمة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم في دور مهم بل في أهم دور من تاريخها

اني لا اجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام في أنحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن · ولكنها من جهة اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هي في هذا الزمان · فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه · وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة · ولم يدع وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين ·

فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها وباي طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكليزي على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والالماني زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوي على كنوز لا يعرف اهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا امة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا اهلها واهلكوهم أو أجلوهم عن ارضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقا حيث لا يرى اثر لاهالي البقاع التي احتلها الاوروباوي لانهم خرجوا منها طوعاً او كرهاً . وان صادفوا امة كانت دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماضٍ ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية خالطوا اهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على اهم اسباب الثروة لانهم اكثر مالاً وعقلاً وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم في الحياة : فطرة الله التي فطر عليها جميع الانواع واودعها لها لتعدها الى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها

عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم. وما قوي عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على انه افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها. وهي ان تستعد الامة لهذا القتال وتأخذ له اهبتها وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من اي نوع كانت: خصوصاً تلك القوة المعنوية وهي قوة العقل والعلم التي هي اساس كل قوة سواها

فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها. وسلكت في التربية مسالكهم. واخذت في الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكنها أن تعيش بجانبهم. بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم. لان البلاد بلادها وارضها أبر بها منها بالغريب عنها وابناءها اقدر على المعيشة فيها. وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من انفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون!

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة امامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من انفسنا

فان كان للمصريين هم وصدق عزيمة في طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من انفسهم كل

خليفة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على انفسهم في اصلاح انفسهم ولا يضيعوا اوقاتهم في اماني باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلاً . اما هم فانهم يستطيعون ان يأتوا في اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم ان يقولوا كل يوم ان الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من ان نفعل ما يجب علينا لانفسنا ؟

نحن اليوم نتمتع بعدل وحرية لا اظن ان مصر رأت ما يماثلها في اي زمن من ازمانها . وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة اشد الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح في عمل من الاعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان ننتهز فرصة ما وصلنا اليه ونحرث ارضنا ونسقي غراسها وننتظر ما يأتي به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزارع يجب عليه قبل ان يلقي البذور في الارض ان يهتم بمعرفة طبيعتها بما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئها حتى لا يضيع ماله وتعبه كذلك يجب علينا ان نبحث في اسباب تاخرنا . فاذا عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا انفسنا من التخبط على غير هدى وارحنا انفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا امراً لاحظه كل من له المام باحوال الشرق : وهو ان تاخر المسلمين عام فيه اين كانوا . فالسبب يجب ان يكون عاماً ايضاً .

اما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في انحطاط المسلمين · اذ لو كان له اثر لوجد اختلاف بين التركي والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث العمران والمدنية ولكنا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور في بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد · ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والاقاليم · فالتركي مثلاً نظيف صادق شجاع والمصري على ضد ذلك الا انك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط · اذاً لا بدَّ ان يكون بينهما امر جامع وعلة مشتركة هي السبب الذي اوقعهما معاً في حالة واحدة ·

ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم في البلد الواحد · ولم يقصد احد منهم خصوصاً افاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامي الحقيقي بانه السبب في انحطاط المسلمين · فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلاً عن ابنائه المنتسبين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر بينها برهنت على انه وسيلة من افضل الوسائل وعامل من اقوى العوامل التي تسوق الانسان في طرق الترقي والتقدم الى غايات السعادة · ولكنهم يرون

ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عامتهم بل واغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقي الطاهر وانما هي بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخليط الذي سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو المانع من الترقي ·

وليس في امكان احد أن ينكران الدين الاسلامي قد تحول اليوم عن اصوله الأولى وان العلماء والفقهاء — الا قليلاً ممن انار الله قلوبهم — قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزوا وحقت عليهم كلمة الكتاب : " واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا " ·

ولكني اعتقد انهذا الانحطاط الذي طرأ على الدين ليس سبباً لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشي فى المسلمين عامة رجالاً ونساء ·

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا في آن واحد · وصرحت السنة كما اجمعت عليه الائمة بان لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه · فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على اهم اقسام العالم · ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الأخذ بهذا الدين · وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً

لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذي يعمل له الاوروباويون في بلاد الشرق الآن ·

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء الكون بنور العلوم التي نشرها المسلمون في كل ارض احتلوها و بلد اقاموا به· فلم يتركوا فرعاً من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه وألّفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة الأُمية التي ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية ابداً — اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم· وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر: هذا يشتغل بعلوم الكلام · وآخر بالعلوم الطبيعية · وثالث بالفلك والحساب· ورابع بالتاريخ والجغرافيا · وخامس بالفلسفة والاخلاق · ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجري في البحار حول الارض · واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى ان رزئ المسلمون بوقائع التاتار في الشرق وانقراض الخلافة منه · وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى اوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة العربية وانصرفوا عن كل شيء سواها ·

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكمت ظلماته في اذهانهم لم يعد في استطاعتهم ان يفهموا حقيقة الدين وشعروا ان ضعفهم لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد · ثم اخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق : والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه ·

انظر الى الجاهل تجده دائماً يختار من فكرين اقلهما صواباً ومن طريقين اصعبهما ومن عملين اضرهما · ذلك لان الحق سواء كان فضيلة او مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الاّ بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الامور وعواقبها · ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول · وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبلة ·

ومن رأي علمائنا اليوم ان الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم · وصار منتهى علمهم ان يعرفوا في اعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل · وان سألتهم عن شيء من الاشياء المتداولة في ايديهم كيف صنع او عن حال الامة التي هم منها أو امة اخرى تجاورهم أو الامة التي احتلت بلادهم اين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف · بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من اعضائه او مكانه من بدنه — هزوا اكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقاراً لها · وان تكلمت معهم في نظام

حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتها السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً . وسواء عاشوا في العز او في الذل فهم على كل حال عائشون وبما يحطون اليه راضون . ويرون أن ليس للانسان ان يعمل لمصلحة نفسه وان يختار لها امراً . ويزعمون انهم وكلوا جميع امورهم الى ما يجرى به القضاء . مع انك تراهم اشد الناس احتيالاً في طلب الرزق من غير وجهه واحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم . فهم في الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلاً للعامة واقناعاً للسذج بانهم في تقصيرهم في أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء .

ظن هؤلاء المساكين انهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تهذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما في الدين والدنيا: والبعد بينهم وبين الدين الحقيقي عظيم .

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في بيان ما جاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لانه احسن ما كتب في هذا الزمان لتنبيه افكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت « وعليها ما اكتسبت » فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال « ذرة شراً يره » . « وان ليس للانسان الاّ ما سعى » واباح لكل احد

" ان يتناول من الطيبات ما شاء اكلاً وشرباً ولباساً وزينة. ولم يحظر " عليه الا ما كان ضاراً لنفسه او بمن يدخل في ولايته او ما تعدى ضرره " الى غيره. وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر " كافة. فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم " في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به.

" انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت " فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة في المدارك ونسفنا " ما كان له من دعائم واركان في عقائد الامم. وصاح بالعقل صيحة " ازعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه " شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هياكل الوهم " ثم فان " الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة »

" علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم " يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم والاعلام اعلام " الكون ودلائل الحوادث. وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق " البحث هادون.

" صرّح في وصف اهل الحق بانهم " الذين يستمعون القول " فيتبعون احسنه ". فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين " القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه. " ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يامرون وينهون

« ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم
« حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون ·
« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء
« وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على أن
« السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على
« عقول ولا لأذهان على اذهان · وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة
« سيان · بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها
« والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
« اسلافه وآبائه · وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها اهل الجيل
« الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل
« اليهم بما اقترفه سلفهم « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة
« المكذبين » · وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي
« وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب ·

« عاب ارباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند
« ما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم : « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » ·
« انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون » (١)

ومما يستحق ان نفرح له هو أن نفراً من علماء عصرنا في مصر وفي
غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون ما نرى ويقولون ما نقول

«١» رسالة التوحيد صحيفة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

ويعترفون بان العلوم التي تقرأ الآن في الازهر وفي غيره لا تفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية التي تهيئ العقول لقبولها والانتفاع بها ·

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمبادىء العلمية · أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفي معاملتها مع بقية البشر · وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقي به العقل ؟ أليس العلم في الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فروع وافنان تتصل كلها باصل واحد وتتغذى من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقة كل شيء في الوجود ؟

وما علينا الا ان نصغي لمقال هولاء العلماء الافاضل الذين هم ادرى منا بحاجات الدين ولا يخفى عليهم شيء من حاجات الدنيا · وان نعضدهم في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقبات ويتغلب على المصاعب التي اقامها اهله في طريقه ·

ولا حاجة بنا الى التطويل في شرح امر صار معلوماً عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم في جميع مظاهره حتى في العبادات · وانما اردنا ان نبين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول · وأن العلة الأولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقي هي

اهمال التربية فى الرجال وفي النساء معاً ٠

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل امر على حاله : والدين ايضاً ٠ وان زال ذلك السبب صلح حال الامة في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية وصلح معها الدين ايضاً

اما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل احد ومسلماً عند الجميع ٠ واما وجوب تربية المرأة ايضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية ٠ اما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها ٠ فيجب ان تربى كما يجب أن يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة ٠ لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم

فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم ٠ وهذا هو السر في تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره ٠

ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صديقي احمد فتحي بك زغلول من اللغة الفرنساوية الى العربية (١) كيف ان نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الامم

---

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين

بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل · والحرية والاستقلال في الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم ذكوراً وأناثاً · ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم في تقليدهم لانهم ادركوا ان تربية العقل التي اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم · وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم · واذا تذكر القارىء ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه خصوصاً من امه الحالة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيده المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة ·

واما تربيتها العقلية فلأنها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هي حالتها الآن عندنا · نعم انها تلد وبحفظ بها النوع الانساني· لكنها في ذلك انما تؤدي وظيفة كل انثى من سائر انواع الحيوانات · وهي لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

وفي الحق انا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك · وسببه انا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء في القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا أن الرجل انما يكون في كبره كما هيأته والدته في صغره ·

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذي اريد ان يفهمه الرجال · وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب ·

اني اكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم امهات قادرات على ان يهيئنهم للنجاح · فتلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا وهي تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً ·

وبديهي ان العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة · اما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني وهو يحتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة ·

والامر الذي يلزم ان تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامة لان العائلة هي اساس الامة · ولما كانت المرأة هي اساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية اول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة · فان كانت منحطة احتقرها زوجها واهلها واولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً في معيشتهم فتفسد آدابهم وعوائدهم · اما ان كانت المرأة على جانب من العقل والادب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا انفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين اقوياء باتحادهم · وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في

عائلته . ومن المحال ان يكون للانسان من الصفـات والاخلاق في امته ما ليس له نموذج في منزله . وان يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعامل بها افراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق في عائلته كان كذلك في أمته وان كان سيء الاخلاق في عائلته ساءت اخلاقه في امته ايضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الامم وتأخرها .

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة ايضاً من اهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو اهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الابطاء في اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من النـاس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواه وان اهملناه افسد علينا كل اصلاح سواه

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء اوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التي وقفها اولئك الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية

محل الاستبداد رأى العلماء في المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال، وان انحطاطها كان عارضاً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت في رتبة الشعور الى غاية لم تكن تخطر في خيال احد من اهل تلك العصور الخالية . وهي الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك في انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفاً لكتف . ولا يوجد عمل خيري الا وهي في اول العاملين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا وللمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تنل الحقوق السياسية فاذا منحتها كما هو المنتظر في بلاد اوروبا تمت المساواة بينهما . على انها قد نالت منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب في امريكا وفي انكلترا في المجالس البلدية وفي فرنسا في المحاكم التجارية وفي بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس الشورية . ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوروبا وامريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعي في سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر تترك

في تاريخ اعمالهن اثراً شريفاً وتنتهي بفوز جديد ·

ولا يشك احد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لا بد ان تصل في زمن قريب الى مستو تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال في جميع الحقوق · ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله · وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال في ميدان التقدم والترقي ·

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء في التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر اثرها للناظر في احوال الامة ولكن لجميعها مجموع واحد يظهر اثره في احوالها تمام الظهور · وهي رأس مال عظيم نحن مقصرون في العناية والانتفاع به ·

وعندي أن من اعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من اعمال النساء الخيرية · لان الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب · ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله اعظم الرجال جلداً · ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب · غير ان المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشداً يهديها الى سبل الخير فتصرف ما اودعه قلبها من كنوز الرحمة في اصغر الامور واحقرها ·

هذا هو عمل المرأة في الامم المتمدنة وقد وجد في مبدأ الاسلام

عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر في مصالح المسلمين العامة. فجميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية على اختلاف مواضيعها قد رويت عن عائشة وام سلمة وغيرهما من امهات المؤمنين ونساء الصحابة . وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر. وان عائشة تداخلت في مسئلة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد الخلفاء . واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القتها عند دخولها البصرة :

« ان الغوغاء من اهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول « الله صلى الله عليه وسلم واحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين « واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين « (عثمان) بلا ترةٍ ولا عذر. فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال « الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام . ومزقوا الاعراض والجلود « واقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين « ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت في المسلمين اعلمهم « ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في « اصلاح هذا. وقرأت : " لاخير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة « او معروف او اصلاح بين الناس " . ننهض في الاصلاح ممن امر الله « عز وجل وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر

« والاثي . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه . ومنكر
« ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره » (١).

ويروى عن ام عطية انها قالت : « وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم في رحالهم واصنع لهم الطعام واداوي الجرحى واقوم على المرضى »

والذي يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية .

والناظر في الاحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الاحوال لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال . وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه الى الآن التمدن في اوروبا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها اهليتها لان تكون وصية على رجل — يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

---

(١) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦

والقارئ الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغاية الايجاز لا بد ان يكون قد لاحظ انها كلها تتلخص في عبارة واحدة هي: انه لا بد لحسن حال الامة من ان تحسن حال المرأة . فاذا ارسل الناظر فكره ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انحلت له الحقيقة وتجلت له بجميع اسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسما . يرى المرأة التي بيدها المستقبل تتلألأ في انوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كما لها الثنائي : الجسم والعقل .

العائلة

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة· نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير في ارتقاء المرأة وانحطاطها· ولهذا رأينا من الضرورى استلفات الذهن الى اهم المسائل التي تمس بحياة العائلة وهي الزواج وتعدد الزوجات والطلاق · وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب :

١

﴿ الزواج ﴾

رأيت في كتب الفقهاء انهم يعرّفون الزواج بانه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى ان بين الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية· وكلها خالية

عن الاشارة الى الواجبات الادبية التي هي اعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر ·

وقد رأيت في القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج ويصح ان يكون تعريفاً له ولا اعلم أن شريعة من شرائع الامم التي وصلت الى اقصى درجات التمدن جاءت باحسن منه · قال الله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » · والذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه الى اي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهائنا وسرى منهم الى عامة المسلمين · ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التي سقط اليها الزواج حيث صار عقداً غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الاحكام الفرعية التي رتبوها على هذا الاصل الشنيع ·

فهذا النظام الجميل الذي جعل الله اساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع في يد الرجل وجرى العمل على اهمال كل ما من شأنه ان يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخل بهما :

فمن دواعي المودة أن لا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر · ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما · ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقي

الشرعي استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك ان يتم عقد الزواج قبل ان يرى كل من الزوجين صاحبه

بينا فيما سبق ان جميع المذاهب في اتفاق على ان نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم امر به احد الانصار أن ينظر الى خطيبته وهو قوله : " انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما " . فما بالنا اهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة مع اننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها في الاهمية ؟ — ذلك لان الجاهل من عادته ان يميل الى ما يضره وينفر مما ينفعه

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمي العقل قبل ان يتعارفا ان يرتبطا بعقد يلزمهما ان يعيشا معاً ولن يختلطا كمال الاختلاط ؟ ارى الواحد من عامة الناس لا يرضى ان يشتري خروفاً او جحشاً قبل ان يراه ويدقق النظر في اوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه . وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار امامهما الفكر !

لعلك تقول ان المرأة ترى خطيبها من الشباك مراراً وان الرجل يعرف بواسطة امه أو أخته أوصاف خطيبته مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما اشبه ذلك فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال وشمائل . — نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن ان ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها

الآمال . وانما الذي يهم الانسان البصير هو ان يرى بنفسه خلقاً حياً يفكر ويتكلم ويفعل . خلقاً يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيراً ما يرى الواحد شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك وبمجرد ما يقع عليه نظره تنفر منه نفسه في الحال نفوراً تاماً ولا يعلم لذلك سبباً . وربما يستقبح الناظر شخصاً على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل عنده ما وجد منه اولا بضده . وربما زين لاول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس بضده لاول كلمة تصدر منها . وخصوصاً ان هذا الاحساس المادي سواء كان ميلا او نفوراً لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة . فان الانسان الواحد يكون منظره سبباً للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبة الحسية لا بد منها عند الزوجين . وهي ان لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا ارى في اي شيء آخر تكون لازمة !

على ان الانجذاب المادي ليس كافياً في الزواج بل يلزم ان يوجد ايضاً توافق بين نفوس الزوجين . اي انه يوجد — لا اقول اتحاداً لانه مستحيل — وانما ائتلاف بين ملكاتهما واخلاقهما وعقولهما : ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا اذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلاً

ولا يختلف اثنان في ان الزواج الذي يبنى على هذا التوافق يكون امراً محترماً في نفوس الزوجين وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها ويكون ايضاً موجباً للعفة والتصون . وعندي ان كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لاحد من الزوجين مهما طال اجل الزواج ومهما كانت صفات الرجل والمرأة . ولهذا قال الاعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فامره هم وغم »

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد تنحل لاول عرض يطرأ عليها . واغلب ما يكون من ذلك لا سبب له الا رغبة كل منهما في الخروج من قيد لا يرى وجهاً للمحافظة عليه والتنصل من امر لا قيمة له في نفسه .

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب زوجها ما للرجل في انتخاب زوجته فانه امر يهمها اكثر مما يهم ذوي قرابتها . اما حرمانها من النظر في كل ما يختص بزواجها وقصر الرأي في ذلك على اوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا ان يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذي خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته واخلاقه ولا تسأل هل تحب الاقتران به ولا يبحث احد عن ذوقها ورغبتها وميلها وهي لا تجد من نفسها جراءة على ان تبدي ما في ضميرها . ويرى الناس انه لا يليق بالمرأة ان يكون لها صوت في اهم الاشياء لديها فيعطي القريب او البعيد

رأيه في زواجها ما عداها ويظنون ان هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الادب : وهم مخطئون فيما يظنون

منحت شريعتنا السمحاء الى النساء حقوقاً لا تنقص عن حقوق الرجل في الزواج . فلها الحق مثله في ان تتأكد بنفسها من امكان تحقيق آمالها . وما علينا الا ان نسمع صوت شريعتنا ونتبع احكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم واعمال الصحابة لتتم لها السعادة في الزواج

جاء في الكتاب العزيز : « ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف » وكان ابن عباس يقول اتباعاً لهذه الآية الكريمة : « اني احب ان اتزين لامرأتي كما احب ان تتزين لي » وقال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقال في تعظيم حقهن : « واخذن منكم ميثاقاً غليظاً » وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً والطفهم باهله » . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد في الحديث : « حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة » وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى انه كان يضع ركبته على الارض لتضع زوجته عليها رجلها اذا ارادت أن تركب . وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى انه كان يسابق عائشة رضي الله عنها فسبقته يوماً وسبقها في بعض الايام فقال : « هذه بتلك » . وكان يرأف بالنساء ويوصي عليهنّ دائماً . فما روى عنه قوله : « خياركم خياركم

لنسائكم » . وقوله : « استوصوا بالنساء خيراً » . والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على ان الدين الاسلامي يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف .

ولكن ما دامت المرأة على ما هي عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون — كما هو الآن — الا شكلاً من الاشكال العديدة التي يستبد بها الرجل على المرأة

اما اذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها عند ذلك يكون الزواج الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معاً . عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب احدهما الآخر حباً تاماً بجسمها وقلبهما وعقلهما . عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف اهلها أن في كمال عقلها ما يكفي لحسن اختيارها فيكونون معها على اتفاق في الرأي فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها . عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويذوقون لذة الحب الحقيقي

انظر الى زوجين متحابين تجدهما من اليوم في نعيم الجنة . ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خالياً من المال او أن يكون على المائدة عدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب في كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذي يبعث النشاط في الجسم والطمأنينة في النفس ويحيي في القلب شعوراً بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه

في مكان الرضى حتى قال عمر ابن الخطاب : " ما اعطي العبد بعد الايمان خيرا من امرأة صالحة " .

أين هذا من حال عائلتنا اليوم التي نرى فيها الزوجين واحدهما ابعد الناس عن الآخر . ولو لم يكن الا هذا البعد لخف احتماله . لكن لما كان في طبيعة الانسان أن يجري وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها . ومن هذا الاعتقاد يتكون في المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر . وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات في كل آن بسبب وبغير سبب في الصباح وفي المساء حتى وفي الفراش .

وتنتهي هذه الحالة بان تتخلى المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون . فيستولي الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون باهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده وتغفل شؤون الزوج والاولاد في مأكلهم ومشربهم وملابسهم . وتقضي الزوجة اوقاتها في مكان واحد تفكر في سوء ما وصلت اليه او تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها تلك الهموم :

وليس الرجل باحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش في القهاوي او عند جيرانه . فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت .

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر كما هو حاصل الآن انما هو طريقة يستعملها الرجل في الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن في حيازته دفعة واحدة او على التعاقب ولا تجد فيه المرأة مزية ترضي نفسها٠ وكل رجل يقصد من الزواج ان تكون له صاحبة تشاركه في السراء والضراء يصعب عليه بل قد يتعذر ان يبلغ ما يريد من ذلك٠ ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الاخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه٠ ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد في كل سنة — لان الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيراً في المستقبل — صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية امراً ضرورياً لا يستغنى عنه٠ والا فما علينا الا أن نعلن ان الثقة بالزواج قد فقدت وان المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس٠

ولست مبالغاً ان قلت ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه آمانيهم المحبوبة٠ فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل في كل شيء٠ ويطلبون ان تكون ام اولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية اولادها على مبادىء الاخلاق الحسنة وقواعد الصحة٠

وكل من تجرد عن التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لا بد ان ينشرح صدره عند ما يرى نمو هذا الميل في نفوسهم ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر في مطالبهم فلا يستهجنها لاول

وهلة ولا يرميهم بالتفرنج في آرائهم قبل البحث فيها . بل يزنها بميزان العقل والشرع ومتى ثبت له ان هذا التغيير الذي نطلبه ليس الا رجوعا في الحقيقة الى اصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وانه اصلاح يقضي به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .



تعدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام ومنتشرة في جميع الانحاء يوم كانت المرأة نوعاً خاصاً معتبرة فى مرتبة بين الانسان والحيوان . وهو من ضمن العوائد التي دل الاختبار التاريخي على انها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية فتكون في الأمة غالبة عند ما تكون حال المرأة فيها منحطة وتقل أو تزول بالمرة عند ما تكون حالها مرتقية . اللهم الاّ اذا كان التعدد لاسباب خاصة قضت به عند فرد أو افراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم . حتى في الأمة التي ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله واولاده وعرف أن من حقوقها ان تكون في المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات . ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن احداً ينازعنا فيه من ان هذه العادة خفت

في بعض الطبقات من اهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة ·

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود في سقوط هذه العادة حيث قطع ورود الجواري التي كانت تملأ بيوت اكابر القوم واعيانهم · ولكن يظهر لي ان ترقي عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم ايضاً في تلاشيها · ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها ·

وبديهي أن في تعدد الزوجات احتقاراً شديدا للمرأة لانك لا تجد امرأة ترضى ان تشاركها في زوجها امرأة اخرى كما انك لا تجد رجلاً يقبل ان يشاركه غيره في محبة امرأته · وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة كما انه طبيعي للرجل · ولو سلم انه ليس بطبيعي كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذي يعيش بين العشرات من الدجاج فاقل ما فيه انه ميل مكتسب بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت في نفوس افراد هذا النوع عند ارتقائه من ادنى درجاته من الحيوانية الى ما اعد له من الكمال الانساني · فهذا الاختصاص بما كسبه من التأصل في الانفس والرسوخ فيها لا يقل اثره عن اثر الغرائز الفطرية ·

وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها ارتبط بامرأة اخرى اذ لا يخلو حالها من احد امرين : اما ان تكون

مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها . واما ان لاتكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الاسباب فهي مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في اهله فاذا ارتبط باخرى سواها قاست من الالم ما يبعثه احساسها بان ذلك المقام الذي كان باقياً لها قدانهدم ولم يعد لها امل في بقاء شيء من كرامتها عنده . فالالم لاصق بها على كل حال

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو اكثر مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين : الاول ان ما يدعي من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح الا في بعض افراد نادرة لا نحكم لها في تقدير حال امة وان وقائع المنازعات بين النساء وازواجهن والجنايات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى . وهو شاهد على ان تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين ازواجهن ومصدر لشقاء الاهل والاقارب . فمن يدعي ان نساءنا يرضين بمشاركتهن في ازواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت .

والثاني ان ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر فهو ناشيء عن ان المرأة انما تعتبر نفسها متاعاً للرجل فله ان يختص بها وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء . وليس لها على هواه حق تطالبه به : كما كان الرجال عندنا يعتبرون انفسهم متاعاً للحكام في عهد ليس بعيداً عنا !

ويظهر لي أن رجلاً مهذباً عارفاً بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلاعن اكثر ·

قدمنا ان في فطرة المرأة ميلا الى التسلط على قلب الرجل · فاذا رأت بجانبه امرأة اخرى في فطرتها ذلك الميل ويمكنها ان تبلغ منه بضروب الوسائل ماتشتهي تولاها الاضطراب والقلق وهجرتها الراحة وكانت حياتها عذاباً اليما · وتلك الحال لاتخفى على الرجل المهذب · فكيف يمكن أن تطيب نفسه بشهد ذلك العذاب الاليم ؟

ويزيد النساء قلقاً واضطراباً ما صرح به الفقهاء من انه لا يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه وانما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها ·

ولا ريب في أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائماً بانه هو السبب في هذا الشقاء ·

ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم · بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينمي في نفوسهم البغضاء ولا يستطيع احد ان يحول بين ما يشهدون من تخاصم امهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصمهن مع والدهم وبين اثر ذلك في نفوسهم · بل يسري في افئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر اثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الاوروباوية تظهر بحالة السلم وهي تاخذ اهبتها للحرب

حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهم على الآخر فرق بعضهم بعضاً كما نشاهده في اغلب العائلات ·

اين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الاولاد في حضن والديهم · تجمعهم محبة صادقة · لا يتنافسون الا في زيادة الحب ولا يتسابقون الا الى الخير يصل من بعضهم لبعض · يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كاعضاء جسم واحد ان فرح احدهم فرحوا معه وان بكى بكوا معه · هم سعداء الدنيا في كل حال · اسبغ الله عليهم اكبر نعمة يتمناها العاقل وهي المودة في القربى ·

فلا ريبة بعد هذا ان خير ما يفعله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة · ذلك ادنى ان يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته واولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة واقرب الى الوصول الى سعادته ·

ولا يعذر رجل يتزوج اكثر من امرأة : اللهم الا في حالة الضرورة المطلقة كأن اصيبت امرأته الاولى بمرض مزمن لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية · اقول ذلك ولا احب ان يتزوج الرجل بامرأة اخرى حتى في هذه الحالة وامثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها · والمروءة تقضي أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب ان تتحمل هي ما عساه كان يصاب به ·

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل ان يتزوج بثانية اما مع المحافظة على الاولى اذا رضيت أو تسريحها ان شاءت : وهي ما اذا كانت عاقراً

لا تلد لان كثيراً من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلاتهم .

أما في غير هذه الاحوال فلا أرى تعدد الزوجات الا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية . وهو علامة تدل على فساد الاخلاق واختلال الحواس وشره في طلب اللذائذ .

والذي يطيل البحث في النصوص القرآنية التي وردت في تعدد الزوجات يجد انها تحتوي اباحة وحظراً في آن واحد . قال تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم . ذلك ادنى ان لا تعولوا » .

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء . ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما » .

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بان العدل غير مستطاع . فمن ذا الذي يمكنه ان لا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من ان العدل غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ اظن ان كل بشر اذا اراد الشروع في عمل غير مستطاع يخاف بل يعتقد انه يعجز عن القيام به والوقوع في ضده .

ولو أن ناظراً في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيداً عن معناهما لولا ان السنة والعمل جاءا بما يقتضي الاباحة في الجملة .

وكأن مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة وبان الله تعالى وكل الناس في ذلك الى ما يجدونه من انفسهم · فمن بلغت ثقته من نفسه حداً لا يخاف معه ان يجور اذا اراد ان يتزوج اكثر من واحدة ابيح له ذلك بينه وبين الله · ومن لم يصل الى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه ان يتزوج اكثر من واحدة · ثم نبه مع ذلك على ان هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن ادراكها زيادة في التحذير ·

وغاية ما يستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور · وهذا الحلال هو كسائر انواع الحلال تعتريه الاحكام الشرعية الاخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح · فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد في ازماننا او نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين اعضاء العائلة الواحدة وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاماً جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط او بغير شرط على حسب ما يراه موافقاً لمصلحة الامة ·

وانه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من انفسهم ولا اظن أن احداً من اهل المستقبل يأسف على تركها · فان التمتع بالنساء وان قل في هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد

من الناحية المعنوية التي يلزم ان تكون وجهة كل راغب في الزواج · فان رجلاً يسوقه الى الزواج سائق العقل و يوجه رغبته اليه حادي الفكر يعلم انه انما يتخذ لنفسه بالزواج قريناً صالحاً يمده بالمعونة في شؤونه و يؤنسه في وحدته و يشفعه في عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من اهله · فهو يتخير لذلك خير العقائل واكرم السلائل و يصطفيها على ما يجب من العقل والادب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن فيكون له منها منظر بهي وملمس شهي وصورة تعجب ومعنى يطرب · فهم يسبق الاشارة وذكاء يستغني عن العبارة · لذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل ·

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة تأمن شره وانقلابه ويأمن منها المكر والخلابة · تحسن القيام على اولاده بالتربية الصالحة · وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها · فتأخذ ارواحهم من روحها ما اخذته ابدانهم من بدنها · فينشأون على المحبة و يشبون على الالفة فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء · عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه · فاين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟



« الطلاق »

قال ڤولتير الكاتب الفرنساوي الشهير على طريقته من الفكاهة

المعروفة في كثير من مؤلفاته : « ان الطلاق قد وجد في العالم مع الزواج في زمن واحد تقريباً غير اني اظن الزواج اقدم ببضعة اسابيع · بمعنى ان الرجل ناقش زوجته بعد اسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة ثم فارقها بعد ستة اسابيع » · وقد اراد بذلك أن يقول ان الطلاق قديم في العالم وانه يكاد ان يكون من الاعراض الملازمة للزواج · وهو حق لا يرتاب فيه فقد دل تاريخ الأمم على ان الطلاق كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان وانه لم يمنع الاً في الديانة المسيحية بعد مضي زمن من نشأتها ·

ولا يزال أثر ذلك المنع باقياً الى الآن في شرائع الأمم الغربية التي وضعت الزواج على قاعدة انه عقد لا ينحل الاً بموت احد الزوجين · وهذا افراط في احترام هــذا العقد ومغالاة فيه الى حد يصعب أن يتفق مع راحة الانسان

نعم أن من اماني الأمم الصالحة ان تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تحل الاً بالموت ولكن مما تجب مراعاته ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر ·

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على مر الأزمان بان أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم · وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من رقة تلك الاحكام فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم

وما تقتضيه الحاجات . ولقد اشتدهذا الشعور في الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير احكام في احوال سمتها « احوال بطلان الزواج » . ورتبت على ذلك البطلان احكاماً لا تختلف في آثارها عن احكام الطلاق . فقبلت فسخ الزواج اذا اثبت احد الزوجين انه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار أو انه اخطأ في معرفة الآخر أو اذا ادعى احد الزوجين ان الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . واخذت تتوسع في تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شيء . وفي الحالة الاخيرة قد تكتفي بأن يتفق الزوجان على ان يدعى احدهما ان الآخر لم يقم أو لم يعد في امكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينال بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الاّ من قبل الزوجين فقولهما هو الدليل الذي يصح التعويل عليه .

الا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم في هذا الباب . فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير احكام كافلة للراحة . خصوصاً وقد رأت ان هذه الاسباب التي قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة وقل ما تتفق فيها الحقيقة . وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والاذواق السليمة .

ومن اجل ذلك اضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها واوسعت له محلاً من قوانينها. وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله في هذه المادة كما بطلت سيطرتها في كل مالم تتفق فيه احكامها مع مصالح تلك الامم. وهذا هو الشأن في كل شرع او دين لا يراعي اهله في احكامه مقتضيات الزمان والمكان ويغفلون عن طبيعة الانسان ويقفون به في مكان واحد عند ما قرره بعض من سبقهم بدون انعام نظر في اسراره وطرق تنفيذه.

دخل الطلاق في جميع الشرائع الغربية تقريباً رغماً عن معارضة الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له ان يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق. ولكنه لم يصل الى الدرجة التي يستحقها من القبول والاعتبار ولم يستوف احكامه الا عند الامة الامريكانية التي فاقت غيرها يبذلها المجهود في الاقدام على طلب الترقي ففتحت ابواب شريعتها للطلاق ولم تقيده باحوال مخصوصة كما قيده غيرها

وكل مطلع على احوال الامم الغربية يرى الميل عند جميعها الى التوسع في الطلاق ولا بد ان تنتهي يوماً الى الاعتراف بان ما اباحته الى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على احد الزوجين او الحكم عليه بعقوبة في احوال مخصوصة غير واف بالحاجة. وعند ذلك تقرر اباحة الطلاق متى وجدت اسبابه في نفوس الزوجين وتتركه الى مشيئتهما

نعم ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر · ولكنه من المضرات التي لا يستغنى عنها ويكفي لتسويغه ان منافعه تزيد عن مضاره · فان كل نظام لا يخلو من ضرر والكمال التام في هذه الحياة الدنيا امر غير مستطاع

ونحن لا نريد البحث في هذا الموضوع الواسع لاننا اجتنبنا في هذا المختصر كل بحث نظري · وانما نقول ان من اجال النظر في نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق واحكامه يشعر بالنعم التي افاضها الله على المسلمين ويقتنع بأن كتاب الله قد أتى من الحكمة على منتهاها وانه وفى كل شيء حقه·

واول ما يجب الالتفات اليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع اصلاً عاما يجب أن ترد اليه جميع الفروع فى احكام الطلاق وهو أن الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة · والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وما جاء في كلام الائمة نورد منها ما يأتي :

قال تعالى : « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »

وقال جل شأنه : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما »

وقال تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا

جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً. والصلح خير . واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

وجاء في الحديث: « ابغض الحلال عند الله الطلاق » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تطلقوا النساء الا من ريبة . ان الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات » . وقال علي كرم الله وجهه : « تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش » .

وجاء في حواشي ابن عابدين : « أن الاصل في الطلاق الحظر بمعنى انه محظور الا لعارض يبيحه وهو معنى قولهم الاصل فيه الحظر والاباحة للحاجة الى الخلاص . فاذا كان بلا سبب اصلاً لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة واخلاص الايذاء بالمرأة وباهلها واولادها . ولهذا قال تعالى : « فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » اي لا تطلبوا الفراق » انتهى (١).

والمطلع على كتب الفقه وان كان يجد ان جميع الائمة قد نظروا على العموم الى هذا الاصل الجليل الذي من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل اليه الامكان . لكنه لا بد أن يلاحظ ايضاً انهم لم يراعوا في التفريع تطبيق هذا الاصل على طريقة واحدة متساوية . ويرى ان الفقهاء من اتباع الائمة قد توسعوا في امر الطلاق ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة في تطبيق الاحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف

---

(١) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢

يشاهد على الخصوص في ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات :

اولها مسئلة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية — فقد خالف بعض الفقهاء خصوصاً من المذهب الحنفي في هذه المسئلة الاصول العامة التي بنى عليها معظم احكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل والمخطيء واخرج الطلاق من مشمول هذا الاصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطيء والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذي لا يميز السماء من الارض ·

وظاهر ان اهل هذا الرأي لم يعولوا على النية التي هي اساس الدين الاسلامي كما يستفاد من حديث « انما الاعمال بالنيات » · كما انهم لم يلتفتوا الى قصد الشارع في ان الطلاق محظور في الاصل وانه ابغض الحلال عند الله · وقد عللوا نفاذ الطلاق في الاحوال التي اشرنا اليها باسباب اذكرها للقاريء واترك له مسؤلية الحكم عليها :

قرأت في كتاب الزيلعي ما معناه « ان طلاق الهازل والمخطيء يقع لان لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج · وان طلاق المكره يقع لانه عرف الشرين واختار اهونهما · واما السبب في وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجراً له » (٢)

ولكنا نحمد الله على ان في المذاهب الاسلامية الاخرى ما يخالف

---

(٢) صحيفة ١٩٥ جزء ٢

ذلك ويتفق مع اصول الشريعة ومصلحة العامة ويمكن لمريد الاصلاح ان يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذي يقع في تلك الاحوال ·

ثانيا — ان الطلاق الذي نص عليه القران هو واحد رجعي دائمًا · قال تعالى : " يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم · لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة · وتلك حدود الله ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه · لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا · فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم" · وقال تعالى: " وبعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادا اصلاحًا" ·

ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكناية وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى اكثر من واحدة او نوى واحدة بائنة · اما بالكناية فيكون الطلاق بائنًا لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا في بعض الفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثًا ان نوى الثلاث :

الا انه يوجد في مذهب آخر كمذهب الشافعي رضي الله عنه ان الكنايات جميعها رجعية · ووجه الحق في هذا المذهب ظاهر فانما الطلاق طلاق على كل حال وهو فصل عصمة المرأة من الرجل · فاختلاف الالفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة لا يصح ان يتعلق به اختلاف حكم · ولو سلم اختلاف الاحكام باختلاف

الالفاظ في مثل هذا الباب لكان الاوجه ان يكون حكم الكناية اخف من حكم الصريح ٠

ثالثها — اتفق اغلب المذاهب على ان الطلاق ثلاثاً متفرقة في حيض واحد او في مرة واحدة وبلفظ واحد يقع ثلاثاً ٠ على ان هذا النوع من الطلاق الذي اعترف الفقهاء انفسهم بانه بدعي — اي مخالف للكتاب والسنة — لا يمكن تصوره على الكيفية التي قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم ٠ قال تعالى: « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان » ٠ وجاء في تفسير هذه الآية في كتاب حسن الاسوة: « وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقتان اشارة الى انه ينبغي ان يكون الطلاق مرة بعد اخرى لا طلقتان دفعة واحدة ٠ كذا قال جماعة من المفسرين » ٠ وجاء فيه ايضاً : «قد اختلف اهل العلم في ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا او واحدة فقط ٠ فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق ٠ وقد قرره العلامة الشوكاني في مؤلفاته تقريراً بالغاً وافرده برسالة مستقلة ٠ وكذا الحافظ بن القيم في اغاثة اللهفان واعلام الموقعين » (١)

وجاء في ابن عابدين :« وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا « في حالة الحيض لانه بدعة محرمة ٠ وعن ابن عباس يقع به واحدة وبه « قال ابن اسحاق وطاوس وعكرمة لما في مسلم ان ابن عباس قال كان

---

(١) صحيفة ١٦

« الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من
« خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة · فقال عمر ان الناس قد استعجلوا
« في امر كان لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم فامضاه عليهم · وذهب جمهور
« الصحابة والتابعين ومن بعدهم من ائمة المسلمين الى انه يقع ثلاثاً · قال
« في الفتح بعد سوق الاحاديث الدالة عليه: وهذا يعارض ما تقدم · واما
« امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بانها كانت
« واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا في الزمان المتأخر على وجود ناسخ او
« لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم باناطته بمعان علموا انتفاءها في الزمن المتأخر ·
« وقول بعض الحنابلة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة الف
« عين رأته فهل صح لكم عنهم او عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث
« باطل · اما او لا فاجماعهم ظاهر لانه لم ينقل عن احد منهم انه خالف عمر
« حين امضى الثلاث ولا يلزم في نقل الحكم الاجماعي عن مائة الف
« تسمية كل في مجلد كبير لحكم واحد على انه اجماع سكوتي » (١)

وقد روى في هذه المسئلة من الاحاديث مالا يدع شكاً في ان الطلاق الثلاث في مجلس واحد لا يقع الا واحدة · جاء في الزيلعي : « وقال ابن عباس اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال : « ايلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم » · ذكره القرطبي ورواه النسائي · » (٢) وجاء فيه

(١) صحيفة ٥٧٦ جزء ثاني (٢) صحيفة ١٩٠ جزء ثاني

ايضا : « وذهب اهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى ان الطلاق الثلاث
« جملة لا يقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس انه قال: « كان الطلاق
« الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من
« خلافة عمر رضي الله عنهم واحدة فامضاه عليهم عمر رضي الله عنه »
« رواه مسلم والبخاري . وروي ابن اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس انه
« قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثًا في مجلس واحد فحزن
« عليها حزنًا شديدًا فسأله عليه الصلاة والسلام: « كيف طلقتها ؟ » قال:
« طلقتها ثلاثًا في مجلس واحد » . قال : « انما تلك طلقة فارتجعها » (١)

يرى القاري من هذه العبارات التي بسطناها ليحصل لنفسه منها رأيًا أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر رضي الله عنه بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ويمكن للامة اذا ارادت الاصلاح ان تأخذ بقولهم . لان عمر رضي الله عنه قد بين لنا سبب قضائه بقوله : « ان الناس قد استعجلوا في امر كان لهم فيه اناة فلو امضيناه عليهم » فكأنه اجتهد في جعله عقوبة لردعهم عنه . وكانا نعلم انه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه في محاوراتهم وايمانهم .

بل لم لا يأخذ مريد الاصلاح بمذهب الامامية الذي نقله ابن عابدين وهو مذهب الائمة من آل البيت في قولهم كما مر : « ان الطلاق

---

(١) صحيفة ١٩١ جزء ثاني

لا يقع بالطلاق الثلاث ولا في الحيض لانه بدعة محرمة »

وان سمح لي القارىء ان ابدي هنا كل ما اظنه صواباً اقول لا يمكنني ان افهم ان الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . نعم ان الاعمال الشرعية لا تستغنى عن الالفاظ اذ لو حللنا اي عقد لوجدناه مركباً من ظهور ارادة او مطابقة ارادتين حصل الاستدلال عليها او عليهما من الفاظ صدرت شفاهياً او بالكتابة ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . واما مرادنا ان اللفظ لا يجب الالتفات اليه في الاعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلاً على النية

فينتج من ذلك انه يجب ان يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة في انه انما يريد الانفصال من زوجته . لا ان يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به في كتبهم ان الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق) .

والذي يطلع على كتبهم يندهش عند ما يرى اشتغالهم بتأويل الالفاظ والتفنن في فهم معانيها في ذاتها بقطع النظر عن الاشخاص . وعندهم متى ذكر اللفظ تم الاثر الشرعي . ولهذا قصروا ابحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم طلّقتكِ وانتِ طالقٌ وانتِ مطلّقةٌ وعليَّ الطلاقُ وطلقتُ رجلكِ او رأسكِ او عرقكِ وما اشبه ذلك . وصارت المسئلة مسئلة بحث في اللفظ والتركيب

ربما كان مفيداً للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقاً علم الفقه بشيء

على اننا نظن ان علم الشرائع يقبـل ابحاثاً اخرى غير تاويل الالفاظ · والطلاق لم يخرج عن كونه عملاً شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق وانشاء حقوق جديدة وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الاهمية حيث يتعلق به اعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج · فالاستخفاف به الى هذا الحد امر يدهش حقيقة كل من له المام ولو سطحي بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم ·

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالالفاظ و بحثوا في مآخذ الاحكام التي يقررونها وعرفوا تاريخها واسبابهـا وقارنوا المذاهب بعضها ببعض وانتقدوها و بالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقي لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقاً الا اذا كان مصحوباً بنية الانفصال ·

ويمكن لناظر ان يجد في كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال فقد نقل عن شرح التلقين : " ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة او كلمات في حال الغضب او النزاع لا يقع طلاقه " · ورووا في ذلك احاديث مثل قول علي بن ابي طالب: " من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب او اللجاج فرق الله بينـه و بين احبائه يوم القيامة · قاله الرسول عليه السلام " ·

نعم ان ناقل هذا القول اجتهد في رده و بالغ في ابطاله · ولكن مريد الاصلاح له أن يبحث في كتب الشرع كلها و يقف على آراء الفقهاء

مهما كانت خصوصاً اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاماً ·

نحن في زمان ألف الرجال فيه المذر بالفاظ الطلاق فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب في ايديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقاً · فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له ان لم تفعل كذا فزوجتي طالق فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته وهي لا تعلم بشيء ما ولا تبغض زوجها ولا تود فراقه بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها · وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فاذا افترق منها بتلك الكلمة التي صدرت منه لا بقصد الانفصال من زوجته وانما بقصد الزام شخص آخر بالعمل الذي كان يريده كان الطلاق على غير نية منه ·

رب رجل يناقش زوجته في بعض شؤون البيت فيرد على لسانه في وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير قصد منه لهدم العصمة فيقال ايضاً وقع الطلاق ويعقبه أيضاً ما سبق ذكره من البلاء الذي ينزل على الزوجين ·

ورب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلاً فيسأله العمدة او مأمور المركز عما وقع منه فينكر فيستحلفه بالطلاق فيحلف انه ما سرق والحال انه سرق فيقال كذلك وقع الطلاق وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه ولم يخطر بباله عند الحلف انه مباغض لزوجته كاره لعشرتها ·

فلمَ لا يجوز مع ظهور الفساد في الاخلاق والضعف في العقول

وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من ان الاستشهاد شرط في صحة الطلاق كما هو شرط في صحة الزواج كما ذكره الطبرسي وكما تشير اليه الآية الواردة في سورة الطلاق حيث جاء في آخرها: « وأشهدوا ذوَيْ عدل منكم » ؟

أليس هذا أمراً صريحاً بالاستشهاد يشمل كل ما اتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع ان يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لِمَ لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذي يقع الا ن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب ؟ نظن أن في الاخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا ان الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل اليه الامة في زمان كزماننا هذا فانزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم .

بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعليها ان تضع نظاماً للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الاولى »

كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه ان يحضر امام القاضي الشرعي او المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي

بينه وبين زوجته

« المادة الثانية »

يجب على القاضي او المأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على ان الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه ويأمره ان يتروى مدة اسبوع ·

« المادة الثالثة »

اذا اصر الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من اهل الزوج وحكماً من اهل الزوجة او عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما ·

« المادة الرابعة »

اذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي او المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج في الطلاق

« المادة الخامسة »

لا يصح الطلاق الا اذا وقع امام القاضي او المأذون وبحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية ·

والذي يتأمل في الآيات التي سبق ذكرها في الاستشهاد والتحكيم يرى ان نظاماً مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها في شيء · ·

وليس لمعترض ان يحتج بان نظاماً مثل هذا يسلب الزوج حقه في

الطلاق لان حق الزوج في الطلاق باق على ماهو عليه الآن ، فهو الذي يملك عصمة الزواج واسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره . وغاية ما في الامر اننا اشترطنا ان يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضي . وليس في هذا تعد على حق من حقوق الزوج وانما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة واولادها بل ولمصلحة الزوج نفسه حيث نرى كثيراً من الازواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلاً لمداواة طيشهم .

الا يرى افاضل الفقهاء ان مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هي تقليل عدد الطلاق فضلاً عما فيها من اتباع اوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه في الآية التي ذكرناها واتباع أمر شرعي بقي معطلاً الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوماً خصوصاً في امة كامتنا بلغ امرها من فساد الاخلاق والطيش الى حد ان الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشي ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأته جالسة في بيتها لا تعلم شيئاً مما جرى في الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة في مدة الثماني عشرة سنة الاخيرة على أن كل اربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل :

سنة	زواج	طلاق
١٢٩٨	١٣٦٠١	٦٩٠٢
١٢٩٩	٤٩٠٠	٤١٥٢
١٣٠٠	٤٣٥٠	٤٦٤٨
١٣٠١	٣٤٠٠	٤٠٠٠
١٣٠٢	٤٧٠٠	٥٢٥٠
١٣٠٣	٤٧٤٩	٥٥٠
١٣٠٤	٤٨٥٠	٤٦٩٨
١٣٠٥	٤٧٤٩	٥٣٥٠
١٣٠٦	٥٠٠٠	٥٨٥٠
١٣٠٧	٥٧٠٠	٤٧٠٠
١٣٠٨	٦٧٥٠	٥٩٠٠
١٣٠٩	٦٩٠٠	٥٥٤٨
١٣١٠	٧١٠٠	٥٨٤٧
١٣١١	٧٤٠٠	٥٢٨١
١٣١٢	٨٢٥٠	٤٦٥٠
١٣١٣	١٤٢٥٠	٤٦٠٠
١٣١٤	٨١٥٠	٤٣٠٠
١٣١٥	٨١٤٨	٤٠٠٠

واذكر هنا احصائية اخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذي حصل في عموم القطر المصري في سنة ١٨٩٨ :

سنة	زواج	طلاق	
١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠	(١)

ومنها يظهر ان كل اربع زوجات تطلق منهن واحدة و تبقى ثلاث وهذه النتيجة وإن كانت احسن من الاولى بسبب انها تشمل سكان الارياف الذين لا يطلقون مثل اهل مصر الا أن كلاهما من اقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها ٠

ومن الغني عن البيان ان المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق فانها لا تقبل ان تعامل بطرق القسوة والاهانة التي تعامل بها وهي جاهلة ٠ وعند ذلك يحس الرجال انفسهم بانه ليس من اللائق بهم ان يستعملوا حق الطلاق الذي وكله الله بامانتهم الا عند الضرورة التي شرع الطلاق لاجلها ٠ فتربية النساء مما يساعد على اصلاح اخلاقنا وتأديب السنتنا ٠ فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ولكنه يشعر رغماً عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلاً ومعرفةً وعلواً في الاخلاق فيعف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها و يؤدي لها حقوقها ٠

ولكن لا يجمل بنا ان ننتظر ذلك الزمان الذي يبلغ فيه النساء

---

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندي اسماعيل الموظف بنظارة الحقانية والمنتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى

بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن • بل يجب على كل من يهتم بشأن امته ان ينظر في الطرق التي تخفف من مضار الطلاق الى ان يأذن الله بتلك الغاية التي هي منتهى كل غاية • وقد بينا ان مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من الاحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة وتكون مراعاتها من الوسائل الى تقدمنا في طريق الصلاح • واقل ما يكون من اثرها ان لا تجد المفاسد سبيلاً من الشرع الى ظهورها فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة في طمأنينة وراحة بال ولا تكون في كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب •

ولكن لنا ان نلاحظ انه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن ان تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق : ومن حسن الحظ ان شريعتنا النفيسة لا تعوقنا في شيء مما نراه لازماً لتقدم المرأة • والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدى طريقتين : الطريقة الاولى ان يجري العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذي حرم المرأة في كل حال من حق الطلاق حيث قال الفقهاء من اهله : « ان الطلاق مُنع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى » • مع ان هذه الاسباب باطلة لان ذلك ان كان حال المرأة في الماضي فلا يمكن ان يكون حالها في المستقبل ولان كثيراً من الرجال احط من النساء في نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى •

واستدل على ذلك بملاحظة وردت علي عند اطلاعي على احصائية الطلاق في فرنسا فقد رأيت انه في سنة ١٨٩٥ حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق في ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريباً حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت امام المحاكم ان العيب كان من الرجال ·

ولا يصح في الحق إن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التي تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه كأن كان شريراً او من ارباب الجرائم او فاسقاً او غير ذلك مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والاخلاق ان ترضى بعشرته ·

وقد وفى مذهب الامام مالك للمرأة بحقها في ذلك وقرر ان لها أن ترفع امرها الى القاضي في كل حالة يصل لها من الرجل ضرر ·

جاء في كتاب البهجة في شرح التحفة لابى الحسن التسولي ما يأتي:

« ان الزوجة التي في العصمة اذا اثبتت ضرر زوجها بها بشيء من الوجوه
« المتقدمة والحال انها لم يكن لها بالضرر شرط في عقد النكاح من انه
« إن اضربها فامرها بيدها فقيل لها ان تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر
« عند الحاكم من غير أن تستأذنه في إيقاع الطلاق المذكور اي لا يتوقف
« تطليقها نفسها على اذنه لها فيه وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا
« عنده كما ان الطلاق المشترط في عقد النكاح اي المعلق على وجود ضررها
« لها أن توقعه ايضاً بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقاً · وقيل حيث
« لم يكن لها شرط به لها ان توقع الطلاق ايضاً لكن بعد رفعها اياه للحاكم

" وبعد ان يزجره القاضي بما يقتضيه اجتهاده من ضرب او سجن او توبيخ
" ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها ٠ ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر٠
- ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم فهو الذي يتولى ايقاعه ان
" طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج وان شاء الحاكم امرها ان توقعه ٠ فعلى
" هذا القول لا بد ان يوقعه الحاكم او يأمرها به فتوقعه ٠ واذا امرها
" به فهي نائبة عنه في الحقيقة كما انه هو نائب عن الزوج شرعاً حيث
" امتنع منه ٠ وروي ابو زيد عن ابن القاسم انها توقع الطلاق دون
" امر الامام٠ قال بعض الموثقين: والاول اصوب -

الطريقة الثانية — أن يستمر العمل على مذهب ابي حنيفة ولكن تشترط كل امرأة تتزوج ان يكون لها الحق في ان تطلق نفسها متى شاءت او تحت شرط من الشروط : وهو شرط مقبول في جميع المذاهب

وهذه الطريقة افضل من الأولى من بعض الوجوه٠ فان من المضار الحقيقية التي تتفق كل النساء في التحفظ منها وبذل المستطاع في اتقائها مالا يكون سبباً يسمح للقاضي ان يحكم بالطلاق في مذهب مالك وذلك كتزوج الرجل بامرأة اخرى وزوجته الاولى في عصمته٠ فان الزوجة الأولى لو رفعت شكواها الى القاضي وطلبت منه ان يطلقها لم يجز للقاضي ان يجيب طلبها فلو اشترطت ان تطلق نفسها متى شاءت او عند ما يتزوج زوجها عليها كان الامر بيدها٠ ولكن العمل على الطريقة الاولى احكم واحزم فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي ادعى الى تضييق دائرته وادنى

الى المحافظة على نظام الزواج ٠

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم تحل ارواحهم بالوجدانات الانسانية السليمة كان لي الامل الشديد في ان يحرك صوتي الضعيف همة كل رجل محب للحق من ابناء وطني خصوصاً من اولياء الامور الى اغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات ٠

خاتمة

تبين للقارئ مما سبق ان ما نريد ادخاله من الاصلاح في حالة النساء ينقسم الى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والتربية . والقسم الثاني يتعلق بدعوة اهل النظر في الشريعة الاسلامية والعارفين باحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاسلامية وضروراتها فيما يختص بالنساء وان لا يقفوا عند تطبيق الاحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقاً لمصلحة عصره . وأن يدققوا البحث فيما تغير من الاحوال والشؤون فان وجدوا في قول امام ما تعسر معه المحافظة على كرامة الشرع اقاموا مقامه قول امام آخر يكون في مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن اصول الشريعة العامة .

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الاعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة .

١

« اما العلم »

فهو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها وبه تتنبه اذهان افرادها الى ما هم فيه وما درجوا عليه من الاخلاق والعوائد والكمالات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم باحوالهم وتكون تلك الأمور دائمًا موضوع بحثهم·

ان من الغفلة بل من اسباب الشقاء ان تكون شؤوننا في حياتنا قائمة بعوائد لا نفهم اسبابها ولا ندرك آثارها في احوالنا بل انما نتمسك بها لانها جاءت الينا ممن سلفنا وورثناها عمن تقدمنا وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا · مع ان هذا وحده لا يكفي لان يكون سببًا في الاخذ بها ولا في الثبات عليها بل يجب ان نفهم أن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم وذلك من البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان ·

فعلينا ان نأخذ من العوائد وان نكسب من الاخلاق ما يلتئم مع مصالحنا فنكون مالكين لمصادر اعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع لا أن نكون عبيدًا لعاداتنا التي وجدنا عليها آباءنا فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقًا فرأى ان يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسعه لباسه لا ان يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه ·

انا لا نجد عقبة في طريقنا الى السعادة اصعب اجتيازًا من شدة

تمسكنا بعادات من سلفنا من غير ان نميز بين تلك العادات صالحها وطالحها · نعم ان الماضي لا يصح أن يطرح جملة · لكن يجب ان ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما اظهر من منافع ومضار ·

لا ارى اعجب من حالنا ! هل نعيش للماضي او للمستقبل ؟ هل نريد ان نتقدم او نريد ان نتأخر ؟ نرى العالم في تقلب مستمر وشؤونه في تغير دائم ونحن ننظر الى ما يقع فيه من تبدل الاحوال بعين شاخصة وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندري ماذا نصنع ثم ننهزم الى الماضي نلتمس فيه مخلصاً ونطلب منه عوناً فنرتد دائماً خائبين ·

رأينا في هذا القرن حادثة عجيبة اظنها وحيدة في التاريخ · رأينا أمة بتمامها خلعت عوائدها وابطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها وطرحتها وراء ظهرها فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها الا ما كان متعلقاً بجامعة شعبها · ثم همت فبنت بناء جديداً مكان البناء القديم فلم يمض عليها نصف قرن الا وقد شيدت هيكلاً جميلاً على آخر طرز افاده التمدن فهبت من نومها ونشطت من عقالها وشعرت بان الحياة تدب في بدنها وتجري في عروقها دماً حاراً قوياً فتياً : تلك هي الامة اليابانية صارت تعد اليوم في صف الامم المتمدنة بعد أن قهرت في بضعة ايام دولة الصين الجسيمة التي لم يقتلها الا اعجابها بماضيها · أليس في ذلك عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لما اساس في شريعتنا لكان

في ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا . اما وقد برهنا على ان كل ما عرضناه من اوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع احكام الشريعة ومقاصدها فلم يبق لنا عذر في التمسك بها سوى انها قد تقدست بمرور الزمان الطويل واننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شؤوننا .

اذا توهم بعض القراء ان ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة هو من الاحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها . فنقول ان هذا الاعتراض مردود بان الاحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ماتقتضيه العادات الحسنة ومكارم الاخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى انظار المكلفين ووضعتها تحت تصرف اجتهادهم وعلى هذا جري العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين اصحابه واتباعه .

ولما اتسعت خطة الاسلام وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت احكاماً ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من اصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ففصلوا ما اجمله القرآن والسنة من الاحكام وفرعوا منها ما يناسب الاحوال والامصار والاعصار . فهم لم يضعوا بذلك شرعاً ولم يضيفوا على الدين شيئاً وانما كان اجتهادهم قاصراً على النظر في الجزئيات وردها الى كلياتها المقررة في الكتاب والسنة .

الا ترى ان القرآن لم يبين اهم الفروض مثل احكام الصلاة

ومواقيتها وركوعها وسجودها ولا مقادير الزكاة واوقاتها ولا مناسك الحج . وان السنة هي التي رسمت جميع تلك الاحكام مجملة ثم جاء المجتهدون ففصلوا احكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى اصل واحد .

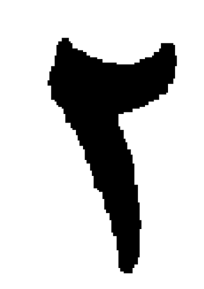
فالشريعة الاسلامية انما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الاحكام لما حق لها ان تكون شرعاً عاماً يمكن ان يجد فيه كل زمان وكل امة ما يوافق مصالحها .

فهذه القواعد الكلية التي تحدد اعمالنا بحدود يجب الانتهاء اليها على حسب ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة هي التي لا تقبل التغيير والتبديل . اما الاحكام المبنية على ما يجري من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الاحوال والازمان وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي ان لا يخل هذا التغيير باصل من اصولها العامة . فكشف الرأس مثلاً قبيح في البلاد الشرقية لانه كان معتبراً في العادة مخلا بالمروءة ولهذا السبب اعتبر عند اهل الشرق قادحاً في العدالة . ولكنه غير قبيح في البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحاً . فالحكم الشرعي يجب ان يختلف باختلاف ذلك . وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصاً في اشخاص الشهود وانما الغرض منه اثبات هذه التصرفات بالطريقة التي وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها مألوفاً . فاذا تغيرت الاحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس على

التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعي وتحولت طريقة الاثبات من الشهادة الى الكتابة · واذا قيل باستحباب ستر المرأة وجهها عن الرجال لخوف الفتنة وعدم اقتضاء الحال لكشفه في زمان كان هناك محل لخوف الفتنة ولا تقضي ضرورات الحياة على المرأة بكشف وجهها فلا مانع من ان يتغير هذا الاستحسان الى ضده في زمان آخر · ذلك لان اختلاف الاحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس في الحقيقة اختلافاً في الشريعة وانما هو رد لأحكام الجزئيات الى اصولها الكلية ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية ·

تبين من ذلك ان لنا في مأكلنا وملبسنا ومشربنا وجميع شؤون حياتنا العمومية والخصوصية الحق في ان نتخير ما يليق بنا ويتفق مع مصالحنا بشرط ان لا نخرج عن تلك الحدود العامة التي اشرنا اليها ·

اما التزامنا بما وجدنا عليه آباءنا وعدم الخروج عن الدائرة التي رسموها لانفسهم فهو القضاء على الامة الاسلامية بجمود القرائح وتقييد الارجل وغل الايدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها · بل قد يكون قضاء عليها بالمحو والاضمحلال ·



« واما العزيمة »

فهي حث الإرادة الى كل خير ارشدنا اليه العلم والعرفان والقرار

بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هي اشرف قوى الانسان واجلها واعظمها اثراً في اعماله . فالتعليم والتهذيب وسعة العقل والاميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لا يفيد فائدة تذكر عند شخص مجرد عن العزيمة : ولهذا كان ضعف الارادة اكبر عيب في الانسان

نرى الكثير من اهل بلادنا يستحسنون فكرة او عملاً ولكنهم لا يجدون من انفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة او ذلك العمل ويكفي انهم يعلمون ان بعض الناس لا يتفق معهم في رأيهم لتلاشي ارادتهم وسقوطها . اما اذا علموا انه ربما يمسهم ضرر ما من ناحية ذلك العمل رأيتهم يفرون منه فراراً .

ان كان لنا امل في نجاح مانعده صالحاً لنا فانما يكون في الرجل الذي يحب ان يعرف ويبحث ليعرف ويعرف بالفعل ما تحتاج اليه بلاده وله عزيمة تدفعه الى العمل في جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها بالوسائل التي تؤدى الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان او قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدده بعد العلم بان الخطوة الاولى في كل شيء هي من اصعب الامور لان الانتقاد جميعه ينصب على من يبتدئ في اي امر خطير . ومن النادر ان يوجد شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فاحسن طريقة اراها لتنفيذ ما عرضناه في هذا الكتاب هي ان تؤسس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة

التي شرحناها وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا اظن ان الطبقات العليا من اهل بلادنا تخلو من واحد منهم) وان يكون عمل هذه الجمعية في امرين : الاول التعاون على تربية البنات على هذه القاعدة الجديدة · والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود الشرعية ولكن بدون ان تتقيد بمذهب من المذاهب بل تأخذ عن كل منها ما هو موافق لحاجاتنا الحاضرة وضرورات عصرنا كما حصل مثل ذلك في وضع المجلة العثمانية وكما حصل عندنا مراراً في بعض المسائل المتعلقة بالمحاكم الشرعية · فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل واحد من اعضائها فان قوة الانتقاد تأتي متوزعة على جملة من الافراد فيسهل احتمالها ومقاومتها فلا يكون في شدة الانتقاد ما يبعث على فتور الهمة وضعف الارادة عن العمل · لان في قوة الجماعة من الاقتدار على المدافعة ما ليس في قوة الفرد الواحد : والاجتماع هو القوة الحقيقية التي بدونها لا ينجح شيء ·

نرى حكومتنا تهتم بمسئلة صغيرة كمسئلة الشفعة فتعين لها لجنة شرعية لتبحث في المذاهب وتجمع ما تراه منها مناسباً من الاحكام · ونرى كثيراً من المصريين يدخلون في كثير من الجمعيات مثل جمعية الرفق بالحيوان ومعارض الازهار وغيرها ولا يضنون بوقتهم ولا بمالهم في تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته · ونرى

الجرائد تنشر بين طبقات الامة من المعارف ما يساعد على تربيتها وتهذيبها وقد آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الامة وارباب الاقلام ان يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية فاني لا ارى مسئلة تمس بحياة الامة اكثر منها ولا احق منها بان تكون موضوعاً لنظرهم ومجالاً لآرائهم وافكارهم ·

فهرست

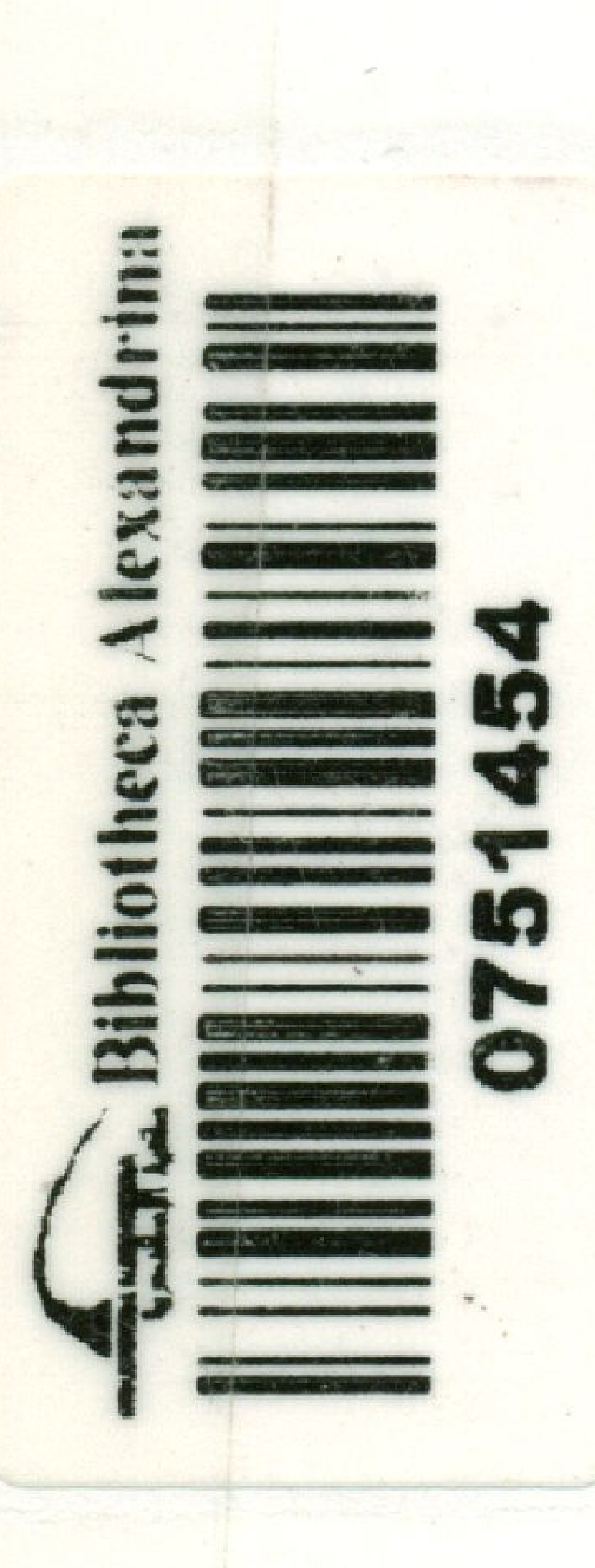
صحيفة

CEDAR PLUMS

Larry D. Griffin



42 Opera Square - Cairo Tel : (202) 23900868



Bibliotheca Alexandrina
0751454